رحلة لاجئ فلسطيني

من لوبية إلى بولاق الدكرور

اسم الكتاب: رحلة لاجئ فلسطيني
من لوبية إلى بولاق الدكرور

هدى محمود الصمادي

الإصدار الأول 2019 م
عدد الصفحات: 136
القياس: 17 × 24
الترقيم الدولي ISBN: 978-9933-572-00-0
الإشراف العام: يزن يعقوب

نكـش الـذاكـــرة: هدى محمود الصمادي / بولاق الدكرور / القاهرة.
الاستشارة التاريخية: سميح محمود الصمادي / قونية / تركيا
المراجعة اللغوية: محمد محمود الصمادي / أوبسالا / السويد
سهيل محمود الصمادي / بريمن ألمانيا

جميع الحقوق محفوظة

للناشر:
صفحات للدراسات والنشر والتوزيع
www.darsafahat.com

سورية ـ دمشق ـ ص.ب 3397
هــاتــف: 095 13 22 11 00963
تلفاكس: 013 33 22 11 00963
موبايل: 818 411 991 00963
info@darsafahat.com

الإمارات العربية المتحدة - دبي
ص.ب: 231422
موبايل: 942 442 528 00971
304 757 503 00971
Darsafahat.pages@gmail.com

رحلة لاجئ فلسطيني

من لوبية إلى بولاق الدكرور

هدى محمود الصمادي

2019

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مقدمة 9

لوبية وبولاق الدكرور 17

لوبية: 17

بولاق الدكرور: 18

قال لي والدي: 18

الإهداء: 21

في فلسطين 23

جدتي زينة مسعود الماضي وذكريات ماض غابر 1820 25

أسر والدي في الحرب العالمية الأولى 1914 27

الولادة نيسان / أبريل 1928: 28

الختان في لوبية: 29

بيتنا في لوبية 30

رمضان في قريتي لوبية، سنة 1935 31

العيد في لوبية 33
مدرستي الابتدائية 1935 34
آثار في حارة العجاينة: 36
ذكريات مع جدي قاسم العيساوي عام 1935 37
الثورة الفلسطينية الكبرى 1936 واعتقال أمي: 40
وصف عرس خالي نمر قاسم عيساوي سنة 1938م 42
زيارة بيت لحم في نيسان/ 1938م 43
زيارة للقدس للمرة الثانية سنة 1939 45
محاولة السفر للقاهرة 1940 47
الرحلة الرابعة إلى شرقي الأردن، سنة 1942 50
الذهاب لحيفا والعمل في الشرطة 1943. 53
خطبتي عام 1944 56
وصف عرسي عام 1944 57
العائلة الصغيرة ورحلة إلى القدس 1946 63
الخط الحديدي الحجازي وتفجير محطة حيفا 1946 64
حيفا كما رأيتها قبل النكبة وبعدها 65
بداية التحاقي بالمجاهدين 1948: 68
معركة طبريا 19/ 4/1948 69
سقوط صفد 12 / 5/ 1948 71

معركة لوبية الأولى سنة 1948م 73
معركة لوبية الكبرى 16 / 7 / 1948 74
استشهاد خالي نمر في معركة الشجرة 1948 75
الفوضى في صفوف المتطوعين العرب 1948 76
الخداع اليهودي: 77
معركة معلول 1948 وإصابتي 79
نقل الجرحى إلى لبنان ودمشق 1948 80
في دمشق..... 83
من دمشق إلى لبنان 1948 85
من لبنان لدمشق 1948..... 86
مؤامرات أضاعت البلاد والعباد: 90
رحلة من دمشق للقدس 1955 91
مكتبتي المنزلية، والتي عكفت على جمعها طيلة حياتي ومازلت 93
من مخيم اليرموك رحلة الحج الأولى 1958..... 95
مشروع جامع الرجولة 1961 96
الجمعية الخيرية الفلسطينية 1966 98
الالتحاق بالمقاومة الفلسطينية في الأردن 1968 99
مكتبة الطلاب الحديثة 1969 101

رحلة الحج الثانية 1972 / 1973 103

زيارة شمال فلسطين ولوبية بعد النكبة 108

التغريبة الثانية الخروج من مخيم اليرموك 2013 112

شخصيات التقيت بها بدمشق 115

القاهرة 2013/5/23 129

مقدمة

قد يصعب على المرء أن يكتب عن محبيه، فربما تكون شهادته مجروحة، أو قد تملؤها العاطفة والوجدان فيغلب عليها الطابع الشخصي، فكرت منذ أمد بعيد أن أكتب عن الوالد وقد ترددت كثيرا للأسباب التي ذكرتها، ولكن في عام 2002 أصدر الأستاذ محمد بن محمد حسن شراب سفره الكبير " معجم العشائر الفلسطينية" عن الدار الأهلية للنشر والتوزيع في عمان بـ 1307 صفحات وكان قد خص الوالد بترجمة مطولة إذ كان من المقربين إليه فقد عرفه عن قرب وتلازما منذ أمد بعيد ما بين داريا ومخيم اليرموك في الدروس العلمية والمشاورة في الكتب التراثية والتاريخية وغيرها.

فوجدت بذلك مخرجا لما كنت أفكر به وسأذكر الترجمة كما جاءت وفي نهايتها سأستدرك عليها وأضيف شيئا جديدا. ولكنني واسيت نفسي لما علمت أن كثيرا من الأدباء ترجموا لآبائهم كالمرحوم عبد الرحمن بن الشيخ حسن حبنكة والأستاذ محمود بن عبد القادر الأرناؤوط، وأذكر أن الشيخ مصطفى السباعي كتب مقالا عن والده الشيخ حسني السباعي في "حضارة الإسلام " في أوائل ستينات القرن المنصرم.

قال الأستاذ شراب في ص 465 ص 466 عند ذكرعشائر وأسر فلسطين: "الصمادية " الصمادي (لوبية) شيخ الصمادية في لوبية أبو سميح محمود إبراهيم الصمادي، الشيخ الحافظ الرحالة وعاء العلم، ومعجم تراجم الرجال. من مواليد

لوبية سنة 1928م لو قيَد ما يعرف وما رأى من الأماكن والبلدان والبقاع ـ في العالم العربي ـ وبخاصة بلاد الشام ـ لكان معجما للبلدان يقارب معجم ياقوت الحموي، ويستدرك عليه.

ولو صنف كتابا في تراجم رجال العالمين العربي والإسلامي، لكان عندنا معجم أعلام يستدرك على معجم الزركلي. يحدثك عن تاريخ وجغرافية بلاد العرب والعجم، ويحد حدودها وأصول سكانها وكأنه من أهلها. بلاد الترك والفرس والأفغان، والجمهوريات الإسلامية في " الاتحاد السوفيتي سابقا" كل ذلك من ذاكرة واعية حافظة في سن السبعين من العمر المديد العامر بالاقتباس والعطاء. كنا نجتمع مع عدد من الشباب في صباح كل يوم جمعة في داريا الشام لقراءة كتاب السيرة النبوية التي صنفها ابن هشام، فيمسك كل واحد من أهل المجلس نسخته للتصحيح والتحقيق والمقابلة، وكان أبو سميح بدون نسخة، يقابل على ما في ذاكرته، فيكون ما يراه هو الصحيح بعينه.

هو دائرة معارف في تراجم الرجال القدماء والمعاصرين وفي أحداث فلسطين ورجالاتها وأحداثها وثوراتها، وفي الفقه الإسلامي وأسباب نزول القرآن وتفسيره، وفي السيرة النبوية وأعلام الصحابة والتابعين، والملل والنحل الإسلامية والمسيحية واليهودية، والكتب القديمة والحديثة، وقيمة مضموناتها.

هاجر من بلدته لوبية سنة 1948م وعمره عشرون سنة، ولكنه يرسم لك مصور فلسطين، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، ويقدم لك بالوصف الدقيق التفصيلي ما تعجز المصورات الجوية عن تقديمه مما يوحي لك أنه كان أصغر رحالة في التاريخ.

شارك في معارك الجهاد والمقاومة سنة 1948م، وفي ذاكرته من أخبار الحرب والمعارك ما لا يوجد في مطولات الكتب، لأنه يصف الميدان الذي شارك فيه ورآه، أما الآخرون فيصفون ما روي لهم.

لم يقدم أبو سميح للمكتبة إلا جزءا من ألف مما عنده، وتفرغ للرواية أكثر من تفرغه للكتابة، وله سلسلة من أعلام الرجال: الصحابة والتابعين ومن تبعهم، وأبطال النهضة العربية، فيها قطرة من بحر علمه، والكتابة عن أبي سميح محمود إبراهيم الصمادي لا تستوفي هذا المحل، ولكنها تحتاج إلى مجلد كبير.

وهو اليوم (سنة 1998م) يسكن في مخيم اليرموك، ويعمل وراقا في دكانه بشارع لوبية وفي بيته مكتبة ذاخرة بشتى فنون المعرفة يقصدها طلبة العلم والباحثون للاطلاع على نوادر الكتب والمراجع. وعلى طريق الوالد، مشى الابن خليل محمود الصمادي، حيث تخرج في جامعة دمشق، ويكتب في مجلة الفيصل السعودية، ويعمل مدرسا في الرياض."

انتهى كلام الأستاذ شراب، وأحب أن أضيف أن الوالد أطال الله عمره أدى فريضة الحج للمرة الأولى عام 1958 بحرا عن طريق اللاذقية بور سعيد واستغرقت الرحلة شهرين استمع خلالها للعديد من أئمة الحرمين الشريفين، أمثال الشيخ يوسف عبد العزيز النافع المراقب العام للحرم الشريف والشيخ محمد ناصيف من وجهاء جدة وغيرهما.

أعقب الوالد ستة ذكور وثماني بنات من زوجتين الأولى (الوالدة) توفيت يرحمها الله عام 1973 أثناء عودتها من الحج إذ انحرفت الحافلة عن الطريق فكانت من جرحى الحادث ومالبثت أن توفيت بعد وصولها لدمشق بأشهر قليلة، وتزوج بعدها بأقل من سنة من الخالة "أم سهيل" وجميع ذكوره حصلوا التعليم العالي ويعمل جلهم في مهنة التدريس وله من الأحفاد وأبنائهم أكثر من مئتين

وخمسين حفيدًا موزعين في سوريا، وفلسطين، ومصر، والأردن، والخليج، وأوروبا، ورزق بأول حفيدة " أمينة" وعمره 35 عاما من ابنته "سميحة التي استقرت في فلسطين.

أما لوبية التي ولد فيها فهي قرية كانت عامرة قبل 1948 من أكبر قرى قضاء طبرية. قاومت المحتل بضراوة فكان مصير سكانها القتل والتشريد ثم هدم القرية على من بقي فيها.

شارك في معرك الجهاد في فلسطين وأثناء تشريد أبناء قريته من لوبية، جرح في معركة معلول قضاء الناصرة بقيادة المجاهد" أبي إبراهيم الصغير" فنقل إلى مشفى الناصرة، ثم مشفى بيروت وأخيرًا إلى مشفى المزة العسكري بدمشق، وبعد أن من الله عليه بالشفاء رجع للجهاد في فلسطين وبعد انتهاء المعارك طفق يبحث عن أسرته فعلم أنها هاجرت للبنان وبعد بحث مضن اجتمع مع زوجته وابنته سميحه ابنة السنتين ووجد زوجته انجبت مولودا جديدا أسماه "سميح" وذلك في أحد مخيمات بعلبك، أواخر عام 1948م. ولم يطب له المقام هناك وشد الرحال لدمشق، ويومها فتحت دمشق مساجدها لجموع اللاجئين فكان حظه مع عشرات من أهل قريته في جامع قريب من سوق الهال وسط دمشق يسمى جامع الخليلي في حي العناتبة وبعد مدة انتقل إلى جوبر ثم إلى مخيم اليرموك، وبعد الأحداث الأليمة في سورية غادرها للقاهرة

عمل الوالد فور وصوله إلى دمشق مهنا حرة كبيع الخضار في سوق الهال، ورفع مواد البناء للمباني الشاهقة وبعد صدور المرسوم الجمهوري عام 1949 الذي ينص على منح اللاجئين الفلسطينيين الحقوق التي يتمتع بها المواطن السوري توظف في سلك التربية وبقي في عمله حتَّى التقاعد المبكر عام 1978 إذ كان قد أنشأ مكتبة لبيع الكتب والقرطاسية فأحب أن يمارس فنونه وهواياته من صومعته الفكرية.

لازم المشايخ والعلماء من أول وصوله دمشق ولا سيما الشيخ ناصر الدين الألباني " يرحمه الله" إذ تأثر بنهجه العلمي وبخاصة حين كان الشيخ مقيما في مخيم اليرموك. كما تأثر بالشيخ عبد القادر الأرناؤوط طيب الله ثراه وكان حريصا على حضور مجالسه العلمية وخطب الجمع التي كان الشيخ يلقيها في حي القدم أو في حي المزة. كما قرأ على الشيخ المحقق أحمد محمد دهمان وتعلم منه فنون التحقيق والتراث. كما كان دائم الحضور لمشايخ دمشق أمثال الشيخ سعيد البرهاني والشيخ عبد الحكيم المنيِّر والشيخ بهجة البيطار وغيرهم.

اقتنى الوالد نوادر الكتب القيمة ولا سيما المختصة بالتراجم، والتي تبحث عن فلسطين والعثمانيين وربما يحتفظ بنسخ نادرة لبعض الطبعات القديمة قد لا يكون لها مثيل حتَّى في المراكز الثقافية.

جمع مكتبته القيمة في غرفة أرضية من بنائه بمخيم اليرموك وصارت هذه الغرفة الضيقة مركزا لطلاب العلم والمعرفة ـ لا يخلو يوم منهم ـ يقرؤون على الوالد ويستعيرون ويناقشون. وقد أولع باقتناء الكتب منذ طفولته، ففي فلسطين كان يشد الرحال إلى حيفا ويافا لشراء الهلال لجرجي زيدان والرسالة للزيات والثقافة لأحمد أمين، ويقرؤها على غلمان قريته..

في صيف عام 1968 و1969 ساهم في المقاومة الفلسطينية وشارك في بعض المعارك في غور الأردن، إذ كان يغيب أكثر من شهر في العام ثم يعود لعمله بدمشق عند افتتاح المدارس.

خرّج كتاب تفسير الجلالين ووضع أحاديث مناسبة تفسر الآيات القرآنية في كل صفحة من صفحات الكتاب" طبعة دار الملاح، دمشق"

حقق كتاب محمد حسن صديق خان "نشوة السكران في صهباء الغزلان" عن دار كرم بدمشق.

كتب سلسلة عن عظماء الإسلام لأكثر من ثلاثين صحابيا وتابعيا وممن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين كما كتب عن يوسف العظمة وعبد القادر الحسيني وغيرهم من أبطال النهضة العربية.

شارك في عدة محاضرات وندوات فكرية في المخيم ودمشق وعدد من البلاد العربية والإسلامية.

مازال حريصا على المطالعة اليومية منذ ستين عاما ويمارس رياضة المشي يوميا بعد صلاة الفجر كما أنه مواظب على حضور الدروس العلمية وقبل عامين حرص على اصطحابي معه إلى داريا التي تبعد عن مسكننا حوالي 10 كم لحضور درسه الأسبوعي عند الأستاذ "محمد بن محمد حسن شراب" على الدراجات الهوائية إذ ركب دراجته واستلف لي دراجة أخي وبعد عناء وصلت مرهقا متعبا وتعجبت من إصراره ومداومته على هذه العادة الجيدة وقد تجاوز الخامسة والسبعين. ورغبتُ عليه أن يكون حضوري معه في المرات القادمة بالسيارة.

سافر إلى كثير من البلدان العربية والإسلامية منها لبنان والأردن والسعودية ومصر وإيران وتركيا وأذكر في رحلتي معه إلى تركيا صيف 1994 أننا وجدنا طلابا أتراكا من إستانبول يدرسون العربية في دمشق فأعجبوا بالوالد وأصروا على مرافقتنا لاطلاعنا على معالم عاصمة الخلافة إكراما له لأنه يزورها لأول مرة، ولكنهم ذهلوا لما علموا أن الوالد يعرف إستانبول أكثر منهم، بشوارعها ومساجدها وساحاتها وزواياها وتكاياها ومكتباتها فلما سألوه عن ذلك قال لهم: أعرفها عن طريق الكتب، فعلم رئيس بلدية أبي أيوب الأنصاري بالوالد عن طريق الطلاب فاجتمع معه في مكتبه في البلدية بعد صلاة الجمعة مرحبا ومهنئا بالشيخ الجليل.

نشط في المناسبات الاجتماعية، فأسس ورأس الجمعية الخيرية الفلسطينية في مخيم اليرموك عام 1966، كما رأس لجنة بناء جامع الرجولة في المخيم نفسه عام 1961م، وأمَّ المصلين وخطب الجمعة فيه لسنوات عديدة.

ولم يستمع لكلام الناصحين في تصفية المكتبة وتأجير الحانوت بمبلغ يفوق خمسة أضعاف دخله إذ غدا شارع لوبية من الأسواق المشهورة والمصنفة من الدرجة الممتازة بدمشق وبقي في مكتبته بالشارع المذكور يبيع القرطاسية والكتب، ويجالس طالبي العلم، حتَّى عام 2000م وبعدها سلمها لأحد أبنائه بعد أن اشترط عليه أن تبقى مكتبة وآثر البقاء في المنزل بين كتبه وأسفاره وأصدقائه.

عضو في اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين بدمشق منذ عام 1992م. وحرص على حضور بعض أنشطته المتعلقة بالتاريخ والتراث، كما كان ضيفا أكثر من مرة على عدد من البرامج التلفازية السورية وغيرها عند الحديث عن مأساة فلسطين.

وقبل عشرة أعوام أصدر الأستاذ محمد عمر حمادة حفيد المجاهد القسامي حسين حمادة كتاب أعلام فلسطين ذكر ترجمة وافية للوالد نقتطف منها: "ولد في لوبية، أتم دراسته الابتدائية في بلدته، وحين اشتعلت الثورة الفلسطينية كان الصمادي من رجالها الثائرين فاشترك في معارك عديدة، فكان في صفوف المجاهدين بقيادة المجاهد أبو إبراهيم الصغير.... وبعد النكبة تجول في كل من الأردن والسعودية وزار إيران وتركية ومصر وكان في تجواله يأخذ من علماء تلك الأمصار، وهو يملك ثقافة واسعة في مجال الأدب والعقيدة والفكر والتاريخ، ويتميز بالكرم وسعة الصدر والمثابرة وشغفه الكبير بقراءة القديم والجديد وتجمعني به صداقة وود ومتابعات أدبية وفكرية، وقد زودني بأسماء الأعلام من

داخل الأرض المغتصبة منذ عام 1948 بعد عودته من الأرض المقدسة".

أما هذا الكتاب فهو ذكريات رواها الشيخ محمود إبراهيم الصمادي أثناء هجرته الثانية من مخيم اليرموك في حي بولاق الدكرور الشعبي القاهري العريق.

ذكريات التقطتها ابنته هدى ونشرتها على صفحات التواصل الاجتماعي فلاقت قبولا بين المتابعين وبما أنها خرجت من الخاص إلى العام فجدير أن تنشر ويقرأها عدد كبير من الناس كي يعرفوا من خلال هذا الغلام اللوباني تاريخ النكبة.

ذكريات فيها تاريخ شفوي جميل للطفل الذي ولد في قرية لوبية قضاء طبرية في نيسان / أبريل من عام 1928، وهناك كبر وترعرع ولكن ولما شب على الدنيا كان هدفه الأول الذهاب إلى القاهرة ويبدو أن أم الدنيا كانت في ذلك الوقت أحلام الشباب الطامحين في الحياة.

النكبة التي حطت برجل تسعينيٍّ في حي مشهور بالقاهرة بعد أن عانى مرارة التشرد في لبنان ودمشق وضواحيها وعاش الأزمة السورية التي غيرت الموازين كلها

لندع الشيخ يروي لنا تاريخ فلسطين واللجوء والهجرة وكيف خاض غمار الحياة من خلال هذه الذكريات الجميلة.

كتبه ولده

خليل محمود الصمادي

الرياض

قبل الولوج في عالم الشيخ وذكرياته لا بد لنا من
معرفة لوبية وبولاق الدكرور ولو بأسطر قليلة.

لوبية وبولاق الدكرور

لوبية:

قرية فلسطينية وادعة من أعمال قرية طبرية تبعد عن مركز المدينة والبحيرة حوالي 12 كم إلى الجنوب الغربي منها على الطريق الواصلة بين طبرية والناصرة. ومن أقرب القرى إليها قرية نمرين، وكفر سبت وحطين والشجرة.

تعد لوبية من حيث مساحتها ومساحة أراضيها الزراعية ثاني أكبر قرى قضاء طبرية، كما تشتهر القرية بزراعة القمح وقدر عدد سكانها قبل النكبة حوالي 3000 نسمة.

وقرية لوبية ذاتها موقع أثري يحتوي على مدافن منحوتة في الصخر وقطع أحجار كانت تستخدم للبناء. وعلى مسافة كيلومترين إلى الشرق منها بقايا بناء يسمى الخان ويحتوي على بركة مهدومة وآثار بناء بالحجارة الضخمة، وربما كان هذا الموقع محطة للتجار أيام العثمانيين.

دمرت القرية تماماً في عام 1948 وشرد أهلها إلى سورية ولبنان وغيرهما وأقاموا في المخيمات بينما أقام اليهود على أراضيها في عام 1949 مستعمرة "لافي" التي بلغ عدد سكانها في عام 1961 قرابة 261 إسرائيلياً، وبعدها بنيت

مستعمرة أخرى على أراضيها وهي مستعمرة "جيفعات آفيني" في قسم الشمالي الشرقي من أراضي القرية

بولاق الدكرور:

حي شعبي بمدينة الجيزة، القاهرة، يقع غرب الدقي والمهندسين وشمال شارع الملك فيصل وحي الهرم وجنوب إمبابة وبشتيل.

وهو من القرى القديمة وردت في قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد باسم بولاق.وأصل الاسم كلمة بولاق هو بلاق بكسر الباء وهي كلمة مصرية قديمة معناها المرساة أو الموردة، وقد أطلق هذا الاسم على بولاق لأنها كانت الموردة قبل إنشاء الجيزة ثم حرف اسمها إلى بولاق.

ويقسم حي بولاق الدكرور إلى خمس مناطق أكبرها: ناهيا، وزينين التي ما زلت فيها؛ وتعتبر بولاق الدكرور من أكبر أحياء القاهرة الكبرى من حيث الكثافة والمساحة. وفيها قسم شرطة بولاق الدكرور ومستشفى بولاق وتمتاز بولاق كلها بأسواقها الشعبية وببساطة حياة أهلها الطيبين.

قال لي والدي:

حديث لاجئ فلسطيني خرج من قريته عام 1948 على أمل أن يعود بعد أيام أو أشهر لكن صروف الدهر حطت به في حي شعبي من أحياء القاهرة.

وبعد سبعين عاما على النكبة أخذ يبوح بما جال في خاطره، ففي جعبته الكثير من حديث الألم والذكرى والحنين، حديث النكبة والتشرد والضياع، وفي الوقت نفسه حديث الأمل والعمل والتحدي.

هي محاولة صغيرة، كي لا ننسى موطننا الأصلي، والغالي على قلوبنا، وكي لا ننسى أيضا آلام اللجوء والتشرد الذي عانى منه الكثيرون، وكي نعرف أيضا الهمة العالية وحب الحياة والاستمرار في العطاء لشعب ما ركن إلى الخنوع والاستكانة بل قاوم وبنى وعمر وأعطى الرسالة لغيره كي يكملوها.

بدأت الحديث مع والدي، في هذا الصباح الدافئ، ووعدني بأن يبوح شهريار لشهرزاد كل يوم بذكرى عابرة أو قصة طريفة أو موقف جميل، علَّ جيلنا الجديد يصبو، إلى أيام قد خلت ويعرف كم عانى آباؤنا وأجدادنا من آلام النكبة.

هدى محمود الصمادي
القاهرة بولاق الدكرور

الإهداء:

إلى قريتي لوبية التي كانت يوما ما وادعة هادئة قبل أن يجتاحها الغربان

إلى دمشق المدينة التي احتضنتنا وأنستنا آلام الغربة والتشرد

إلى مخيم اليرموك الذي كان يوما ما عاصمة الشتات الفلسطيني فاستكثر البعض ذلك علينا فأصبح قاعا صفصفا.

إلى قاهرة المعز لدين الله وإلى الناس الطيبين في بولاق الدكرور الذين وجدت فيهم الأهل والولد والصاحب.

إلى روح خالي الشهيد نمر قاسم عيساوي وإلى كل شهداء فلسطين.

إلى روح زوجتي جميلة حسين اللبابيدي " أم سميح" وإلى جناب زوجتي فاطمة علي حسن "أم سهيل" التي حملت شيخوختي وتحملت أعباء الحياة معي.

إلى أبنائي وبناتي الأربعة عشر والموزعين مع أولادهم وأحفادهم وأولاد الأحفاد في قارات العالم الخمس.

إلى كل من دافع عن فلسطين بسلاحه أو ماله أو قلمه أو بيده أو لسانه أو قلبه وذلك أضعف الإيمان

أهدي هذه الذكريات

محمود إبراهيم الصمادي

القسم الأول:

في فلسطين

جدتي زينة مسعود الماضي وذكريات ماض غابر 1820

إبان تولي محمد علي باشا الحكم، وبعدما قوي نفوذه في مصر والسودان، انفصل عن الدولة العثمانية، فزحف بجيوشه إلى بلاد الشام، واستولى على سوريا ولبنان وفلسطين واجتاز الحدود التركية، وتوغل حتَّى وصل ضواحي أنقرة، عندها تدخلت الدول العظمى، بالصلح بين محمد علي باشا والعثمانيين، فتم الاتفاق عام 1840 والذي عرف باتفاق لندن، على أن يكون محمد علي واليا على مصر، وذريته من بعده، ومنح لقب الخديوية، بمعنى الحاكم، وفي فترة نفوذه على بلاد الشام كان قد هاجر آلاف المصريين إلى فلسطين، وسكنوا في ريف الساحل الفلسطيني الجميل، مثل الطنطورة، والطيرة وعين غزال، وفي أثناء حكمه أيضا تم منح مسعود الماضي أحد وجهاء قرية إجزم على الساحل الفلسطيني لقب وجيه وتم تعينه حاكما لمنطقة حيفا، ثم ضُمت إله غزة.

كان مسعود يتمتع بالحنكة والذكاء والفطنة بالإضافة لعلمه وثقافته وفي فترة توليه الحكم تعرف على جدنا الشيخ إبراهيم الذي كان متعلما وعلى جانب كبير من الدراية والعلم والأدب وكان الجميع يشهد له بصدقه وأمانته، حيث عمل موظفا كبيرا في ديوان الحاكم مسعود مما جعله مقربا منه.

أدركت المعمِّر عايد الحسن وهو من مسني لوبية فذكر أنه أدرك الشيخ إبراهيم، ورآه بأم عينه موظفا بلقب شوباصي، أي موظفا كبيرا يقدر الأملاك، والضرائب على بيادر القمح، والكروم والزيتون.

ولأمانته وصدقه قرر الحاكم مسعود الماضي، تزويجه ابنته زينة، وكان ذاك عام 1820م فأقيمت الأفراح والليالي الملاح في قرية إجزم، كيف لا وهي ابنته

الوحيدة، وزفت إلى لوبية برفقة ثمانية جمال محملة بالأثاث والسجاد الفارسي، وأواني النحاس والفضة، وقيل بأن جملا كان يحمل جرتين من الذهب، نقوط مسعود لابنته.

وعاشت الجدة الكبرى زينة الماضي بقريتنا الجميلة لوبية وكانت أميرة حقيقية، بملبسها الحريري الفاخر، ولباقتها وحسنها وسمو أخلاقها، وأنجبت ذكرا واحدا هو جدي خليل، وكانت تكنى بأم خليل فأنا: " محمود إبراهيم خليل إبراهيم حسين جودة الصمادي "

بنى لها أبوها دارا كبيرة بلوبية كانت بمثابة قصر، مبني من الحجر وقائم على قناطر وعمدان، حتَّى أن والدي إبراهيم أدرك هذا القصر وولد به؛ كيف لا وهو بيت العائلة الكبير، وأيضا بنى على شرف ابنته الاميرة زينة، مسجدا في قريتنا، كان يعرف بمسجد ابن الماضي، كان بناؤه فخما، ومتسعا كبيرا، ومن خلفه باحة من الجهة الغربية فيها بئر ماء، وكانت عليه لوحة مكتوب فيها قام بهذا البناء الشيخ الوجيه مسعود الماضي، سنة 1824م.

بعدما تولى إبراهيم باشا الخديوية، واستقرت أموره بمصر، طالب الحاكم مسعود بعودة المصريين إلى ديارهم بمصر، لكن المصريين رفضوا العودة لأنَّهم أحبوا المكان واستقروا فيه، وصل الأمر للخليفة السلطان مراد، فقال السلطان العثماني بأن المصريين هم رعايا الدولة العثمانية، ولهم الحق بالسكن بأي مكان يتبع للدولة في هذه الفترة كان مسعود الماضي مواليا للدولة العثمانية، ولكن كانت قناعته بأن بقاء المصريين في الأراضي الفلسطينية الساحلية وبموافقة السلطان مراد ما هو إلا توطئة للاستعمار الغربي لذا بدأ يعارض توجه السلطان العثماني والوالي المصري.

بدأ إبراهيم باشا يفرض سيطرته وجبروته على من حوله، وبدأ الظلم والاضطهاد يظهر في كل البلاد، وحتى الباب العالي وقف ضد محمد علي

باشا وأطماعه التوسعية التي وصلت إلى الأناضول، فتشكلت معارضة قوية من الداخل الفلسطيني وثار مسعود ورفاقه عليه وكان معه الثائر علي الأحمد من لوبية، وفي هذه المرحلة توافقت تطلعات مسعود الماضي مع الباب العالي باستانبول، وبعد سنوات من مقاومة جيوش إبراهيم باشا فشلت ثورة مسعود وألقي القبض عليه عندها أمر إبراهيم باشا بإعدامه ورفاقه، بمدينة عكا، سنة 1834م.

حزنت الجدة زينة على والدها كثيرا، ويقال بأنها أصيبت بكبرها بالخرف أي "الزهايمر" وتوفيت سنة 1880م وقد شهدت مولد حفيدها أي والدي إبراهيم بن خليل وأكحلت عينيها برؤيته، ودفنت في مقبرة لوبية من الجهة الشمالية، وفي المناسبات كنا نزور قبرها برفقة والدي ونقرأ على قبرها الفاتحة، ومن المرويات الشعبية التي أشيعت في لوبية أنها قد دفنت جرار الذهب التي أهداها إياها والدها يوم عرسها، تحت التراب وقد نسيت المكان الذي أخفتها به، والله أعلم.

أسر والدي في الحرب العالمية الأولى 1914

في عام 1914كان والدي جنديا بالجيش التركي إذ كانت الدولة العثمانية تفرض التجنيد الإجباري على جميع رعاياها الذين تلحقهم بأي مكان تحدده قيادة الجيش وفي هذا العام كانت بداية الحرب العالمية الأولى التي اشتركت فيها تركيا مع ألمانيا ضد دول الحلفاء التي تقودهم بريطانيا، وشارك والدي مع الجيش التركي فتقدم نحو مصر، حتَّى وصل قناة السويس، وهناك جرت معركة شهيرة بين الجيش الإنكليزي والأتراك عرفت باسم "معركة الترعة"، تقهقر الجيش التركي نحو فلسطين، وتراجع من سيناء نحو فلسطين وعسكر قرب غزة، وجرت عدة معارك في خان يونس وغزة، أصيب والدي بعدة جروح هو وكثير

من الجند، وبعد أن انسحب الجيش التركي إلى الشمال باتجاه القدس ألقى الجيش الإنكليزي القبض على الوالد وأخذوه أسيرا جريحا إلى مصر لمعسكر قرب الإسماعيلية، اسمه التل الكبير، بقي بالأسر سنتين وهناك تعرف على ضابط سوري أسر معه اسمه فخري البارودي.

وكانت الدولة العثمانية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وبدأ نجمها يأفل، وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى 1918. أطلق سراحه وسراح باقي الأسرى وعاد إلى فلسطين، وأهل لوبية كانوا قد اعتقدوا بأن إبراهيم قد فقد، أو استشهد، وذهلوا عندما عاد حيا، وعاد معه صديقه وابن بلده من لوبية، علي السنيور، وكم فرح أهالي لوبية بعودة أبنائهم، أحياء.

الولادة نيسان / أبريل 1928:

في صباح الثالث من نيسان، عام 1928 أذن المولى أن آتي للحياة، في قريتي الصغيرة الوادعة لوبية، والتي كانت كباقي قرى فلسطين، تخضع للاحتلال البريطاني، كان يوما ربيعيا، لكنه لا يخلو من الصقيع عندما فاجأ المخاض أمي آمنة بنت قاسم العيساوي، ابنة قرية ترعان القريبة من قريتنا لوبية، إذْ سارع والدي الشيخ إبراهيم إلى الداية زينة السملوتي التي أشرفت على الولادة.

كانت فرحة العائلة لا توصف كما قيل لي فيما بعد، إذ سارع أبي بتوزيع القطين (التين المجفف) والراحة، والتي كان قد جلبها من مدينة الناصرة كضيافة للمهنئين كما جرت العادة، كما قيل لي: كنت يا محمود جميل المحيا، كأمك آمنة بشرتك بيضاء عيناك جميلتان عسليتان واسعتان، وشعرك مائل للشقرة عند بداية الولادة.

قامت الداية زينة بتمليحي ثم دهن جسدي الصغير بزيت الزيتون، وما زالت هذه العادة إلى الآن تجرى، عند الفلاحين، ثم لفتني، وأدفأتني، ووضعت على رأسي، حطة أبي " غطاء للرأس" خوفا علي من البرد، وما زلت إلى يومنا هذا، لا أقدر أن أظهر مكشوف الرأس، وربما اختارت أمي اسم محمود لي تيمنا بأخيها الصغير محمود الذي كان يكبرني بثلاث سنوات وقد كان مدللا عند أخته العروس التي زفت إلى لوبية، وأعتقد أن والدي العجوز نزل عند رغبة زوجته الشابة الجديدة.

كنت المولود الأول لأمي فأنا بكرها، والسابع لوالدي فعنده من زوجته "مريم" زبيدة وفريجة وحمدة وحسناء وزهرة وأصغرهم أخي محمد الذي يكبرني بعامين.

الختان في لوبية:

كما أخبروني وأنا ابن خمس أو ست سنوات أنهما قررا أي الوالد والوالدة تطهيري أي إجراء عملية الختان لي عندما كنت ابن سبعة أشهر، كما جرت العادة للمواليد الذكور.

وكان ذاك في شهر تشرين الأول سنة 1928م.

كان المطهر يأتي من قرية صفورية لقريتنا، في يوم محدد من الأسبوع، وصل المطهر أبو سعيد الصفوري لبيتنا بعد أن طهر ولدين قبلي من القرية.

تابعوا حديثهم للولد الصغير:

ـ افترشنا لك فرشة صغيرة بكيت كثيرا يا محمود، وخفق قلب أمك آمنة العيساوي وبكت لبكاء صغيرها واجتمعت النسوة في صحن الدار يغنين:

طهروا يا شلبي وناولو لامو
يا دموعو الغالية نزلت على كمو
طهروا يا شلبي وناولو لخالو
يا دموعو الغالية نزلت على ثيابو
طهروا يا شلبي وناولو لسيدو
يا دموعو الغالية نزلت على إيدو

فرح الجميع وتم توزيع الراحة والبسكويت واليقطين، على الصغار.

وقام المطهر بعمله على أكمل وجه، وتقاضى أجره وهو عبارة عن خمسة قروش فلسطينية، ما يعادل نصف ليرة سورية في حينها، وكانت أجرة العامل يومها حوالي عشرة قروش.

وبعدها أرشدهم المطهر أبو سعيد الصفوري أن يزيلوا الرباط بعد ثلاثة أيام، وهو عبارة شاش ودواء أحمر، ويمسحوا مكان الجرح بزيت الزيتون فقط.

بيتنا في لوبية

كان بناء قديما، تعود ملكيته لجدنا الكبير الشيخ إبراهيم، تم بناؤه في العهد العثماني وبالتالي تم توارثته العائلة إلى أن آلت ملكيته لوالدي إبراهيم عن أبيه خليل عن أمه زينة.

كان بيتنا كبيرا قائما على ثماني قناطر تفصل بينهم أربعة عمدان وفيه خمس غرف واحدة مضافة يتم بها استقبال الضيوف، أرضها مفروشة ببساط مصنوع من الصوف ومساند مصفوفة على حيطان الغرفة لتؤمن للجالس الراحة، وغرفة للمبيت فيها فراش كثير مصنوع من الصوف ولحف ومخدات كثيرة، وغرفة كبيرة يتم بها حفظ المونة من محصول السنة كالقمح والشعير والأرز والبرغل

والعدس.وغرفة لخالتي مريم المراد زوجة أبي، وغرفة أخرى تخص أمي آمنة الزوجة الثانية .

في البيت شراع كبير للدواب والماشية، وكان والدي يمتلك ست بقرات، وكان فناء البيت واسعا تدخله الشمس من كل الجهات، وفيه بئرٌ كبيرة، وسلم خشبي يستخدم للصعود إلى السطح، وفيه مطبخ كبير.وكانت حيطانه مطلية باللون الأبيض، وبعدها بنت أمي بيتا خاصا بها، مجاورا للبيت الكبير، وكان به فناء وغرفتان فقط وشراع للماشية أيضا، أما الأراضي التي كانت تعود لعائلتنا أشهرها خانة لوبية الرويس، مساحتها32دونما، وبير عبدالله، خلة قنديل، الخيط.

وتزرع هذه الأراضي بالقمح والشعير والذرة، وكل الغلال المعروفة، أما الخضار فتزرع في أرض اسمها كرم الكفة، وكانت هناك أرض أخرى شراكة بين دار جدي إبراهيم ودار رشيد، اسمها المقرطة وبها كرم زيتون وكرم لوز وكان والدي إبراهيم قد أوصى بحصته بأنها لمحمود أي لي، علما بأن هذه الوصية غير شرعية.

أما تينة اجزل فهي أرض بعلية فيها الكثير من شجر التين، وكان والدي إبراهيم قد بدأ ببناء بيت لي لأسرتي بعد زواجي، ولكن للأسف لم أسكن فيه فلما حدثت الهجرة كانت أبواب البيت وشبابيكه عند النجار حسين علي الخليل من عائلة السملوتي.

رمضان في قريتي لوبية، سنة 1935

كنا ننتظر إثبات رمضان، بفارغ الصبر، ونجلس على الطرقات المؤدية للمدن المجاورة، لنسأل السائقين القادمين من الناصرة إذ كان معهم الخبر اليقين، ونفرح ونعود للوبية لنشر الخبر الجميل، وفي المساء يذهب كبار السن

لمسجد ابن ماضي وهو المسجد الوحيد بالقرية، لأداء صلاة التراويح، وكنا نفرح كثيرا ونرافق الكبار للمسجد ونصلي معهم

وبعدها يذهب الكبار ومعهم والدي لديوان المختار خليل العبد القادر والذي كان على خلق ودين، ويحل مشاكل أهل لوبية ويفض أي خلافات بينهم ويتدخل لأي مشكلة ويحلها مع الحكومة والأمن

وكان لديه راديو وهو الوحيد بالقرية، يتحلق الجميع حوله ليستمعوا لإذاعة القاهرة وإذاعة لندن وخاصة وأن تلك الفترة كانت فترة الحروب الكونية، وبعدها نذهب للبيت، ونستعد لتحضير السحور وهو عبارة عن حليب حيث كنا نمتلك خمس بقرات وكنا نطلق عليهم أسماء كنويرة ونجيمة وعطيرة، وهو تصغير لاسم، نورة ونجمة وعطرة

وكنا أيضا نتناول البطيخ بالسحور، حيث كنا نزرعه بأرض لدينا، اسمها المقثاة، والتي كنا نزرع بها أيضا شمام وقثة، أما عند الفطور، فكانت أمي كمثل باقي أهل القرية تقتني دجاجا وحماما وكثيرا من أنواع الطيور، فتذبح لنا وتطبخه مع البرغل.

وكنا نلعب ونمرح بعد الفطور، وبعدها نرافق الكبار للمسجد لصلاة التراويح، وكان لدي قنباز جميل، وطاقية بيضاء اعتمرها خصيصا في هذا الشهر الكريم.وقد اشترى والدي لنا جملا في رمضان لنقل الغلال من الحقل للقرية، وكنت مولعا بهذا الجمل. وأذكر أن ثمنه كان عشرة جنيهات فلسطينية، وكان لدينا حماران لنقل البضائع أيضا، وكنا نستخدمهما كوسيلة ركوب للقرى المجاورة.وكنت قد أطلقت اسم الأدهم على حمار منهما. وكم فرحنا ذات يوم في رمضان، عندما نال ابن المختار محمد خليل العبد القادر شهادة "الماترك ليشن"، أي الثانوية العامة، وكان هو أول من نالها من أهل لوبية، وكان كأبيه على

خلق ودين وتقى، وقد عين معلما، في قرية عيلوط؛ لحاجة أهل القرية لمعلم، وبقى المختار وابنه في الناصرة، ولم يهاجرا على إثر حرب فلسطين وكنت كثير التردد لقرية أمي في ترعان في رمضان، أزور جدي قاسم عيساوي وأخوالي، وأجلس أراقب مغيب الشمس، وأنقل لهم خبر غروب الشمس كي يؤذن المؤذن، لقد كان رمضان له وقع خاص، في نفوسنا جميعا، وذكريات حلوة لا تنسى.

العيد في لوبية

كانت أمي آمنة تستعد للعيد كباقي النسوة، فتقوم بإعداد الحناء، لصغارها فرحا وابتهاجا، بقدوم العيد، وذلك يوم الوقفة، والحناء عبارة عن خليط، من نبتة الحناء، مبلولة بالماء، تفرش على اليدين والقدمين. أما لباس العيد، فهو عبارة عن قنباز أي كلابية مفتوحة من الأمام، ومخططة بلون اسمه زند العبد وكان أبناء الأغنياء يلبسون قنبازا اسمه الروزة، مصنوع من الحرير الأبيض الناعم، أما الحذاء، فكان يسمى بالمشاية، وهو مصنوع من النعال " جلد البقر "، يتم اقتناؤه من خلال المقايضة مع صانع الأحذية، "الشفاعمري" القادم من قرية شفا عمرو، وكان ثمنها يقدر بعشرين قرشا، أي ما يوازي مدين من القمح أو الشعير والمد يساوي وزن عشرة كيلو من الوزن حيث أن الفلاحين، كانوا يبادلون ببضاعتهم بما يودون اقتناءه، حيث أنَّهم لم يكونوا يمتلكون المال في أغلب الأحيان. وكانت أمي والنسوة في القرية، يصنعن كعك العيد، وهو عبارة عن زرد، محشو بالعجوة وأيضا يصنعون، المقروطة ، ويصنعن حلوى اسمها الخبيصة، وهي مصنوعة من نبات الخروب، المطحون مع السكر والطحين وبعد غلي هذه المكونات، تصب في أواني ويتم تقطيعها بعدما تبرد.وتقدم للضيوف المباركين بالعيد.

كان الجميع يستيقظون، قبل الفجر، فرحين بالعيد ويزيلون الحناء، ثم يستحمون، ثم يرتدون ملابس العيد الجديدة، ثم يذهب والدي بصحبة ولديه أنا وأخي محمد الذي يكبرني بسنتين أو أكثر قليلا؛ لأداء صلاة العيد، في جامع ابن الماضي، وهو الجامع الوحيد بقريتي لوبية، وكان مؤذن المسجد الشيخ علي صالح الشهابي، هو خطيب وإمام المسجد نفسه وقد توفي رحمه الله في مدينة حمص في تسعينيات القرن الماضي، وكان هذا الشيخ قد أنشأ بالجامع روضة أطفال لتعليم الصغار القرآن، ومبادئ اللغة العربية، وقد درست فيها مع أخي محمد.

وبعد أداء صلاة العيد، كان والدي يصطحبنا لزيارة الأقارب، من عمات وخالات وأرحام وكذا نعيِّد على أغلب الجيران من حمولة العجاينة وغيرهم. وأما ألعابنا في العيد وغيره فقد كنت أحب اللعب كثيرا مع أقراني وغالبا ما كنا نذهب إلى منطقة دامية، وهي من أملاك قريتنا فيها مغارات وعيون ماء، وبساتين، تعود ملكيتها، إلى الشيخ محمود الحسين وهو من حمولتنا بل من عائلتنا فابنه الطاهر زوج أختي زهرة وكان والده محمود مختار العائلة، كما كنا نذهب إلى منطقة كرم عيسى حيث يطيب لنا اللهو هناك وإلى خروبة عزام وكان الكبار ينصبون المراجيح بين أشجارها، ليلعب الصغار صبية وبنات بواسطة حبال ثخينة، إذ كنا نتأرجح ونحن في غاية السعادة والسرور ، وكنا أيضا نحن الذكور نلعب لعبة اسمها المفاقسة، وهي عبارة عن بيض مسلوق نضربه ببعض والذي تنكسر بيضته هو الخاسر.

مدرستي الابتدائية 1935

ومرت السنون، وكبرت وأصبحت ابن سبع سنين، وفي عام 1935وقرر والداي إرسالي للمدرسة الابتدائية، وكان اسمها "مدرسة أبو غازي" إذ تم بناء

هذه المدرسة، إبان الدولة العثمانية في عصر السلطان عبد الحميد الثاني، وكان مديرها نصري نخلة، الذي كان مثقفا ثقافة فرنسية، وهو مسيحي من الناصرة، وكان أهل قريتي لوبية، عرفانا وتقديرا، وردا لجميله، قد جعلوا يوم الأحد، عطلة رسمية بلوبية، وكذلك لم يكن وجود الأستاذ نصري، في مدرسة أبو غازي يوميا ، فقط يومين أو ثلاثة أيام بالأسبوع بسبب انشغاله بالتعليم بالقرى الأخرى، مثل قرية الشجرة، وترعان، والبعينة، وكفر كنا وغيرها من قرى الجليل حيث كان لكل قرية نصيب من علمه، يوزعها عليهم، حسب أيام الأسبوع.

وكان مدرس الديانة واللغة العربية الشيخ مصطفى العنبتاوي، وعندما رآني مقبلا نحو المدرسة قال لي: أنا درَّست أباك، الشيخ إبراهيم الخليل وإن شاء الله تكون مثله، بالحفظ وقوة الذاكرة.

وكان يعقب على خطي، ويقول: خطك سيئ يا محمود، عكس خط والدك، الذي كان يمتلك خطا جميلا وبالفعل صدق الأستاذ مصطفى فخطي سيئ إلى يومي هذا الذي بلغت فيه التسعين عاما ميلاديا وازدادت ثلاثا على هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان والدي إبراهيم رحمه الله يحفظ القرآن، والكثير من الشعر على يد الشيخ العنبتاوي رحمهما الله وكذلك الكثير من أهل لوبية ممن هم أكبر مني تعلموا على يد هذا الشيخ الكبير.

وكان يرتاد المدرسة معي أخي محمد، الذي كان من مواليد 1926م، وهو أكبر مني بسنتين، وكان أيضا يصحبني في الصف نفسه ابن أختي حسنة: قاسم محمد قاسم، وكنا أحيانا نتفق على الهروب من المدرسة لنلهو كباقي الصبية، في السهول والمروج فكثيرا ما كنا نهرب، ونخبئ كتبنا ودفاترنا بين الزرع إلى ما قبل موعد الانصراف فنعرج ونأخذها ونعود للبيت.

ومن الذكريات الجميلة في مدرسة أبي غازي وكنت وقتها بالصف الثاني الابتدائي إذ اتفقت مع قاسم أن نهرب لمكان بعيد إلى القرية التي أعشقها إلى ترعان حيث بلدة الأخوال حيث اللعب والمرح، ولكن كما يقال: "لا تسلم الجرة كل مرة"

وجد أحدهم تلك الكتب بين الزروع ولما قرأ اسمي على الكتب والدفاتر، وأخذها إلى بيتنا فعرفت أمي ما يدور من وراء ظهرها، الخال وابن اخته يهربان من المدرسة ذهلت من هذا التصرف وأخذت تبحث عنا ولما تيقنت أننا لسنا في لوبية، وبحدسها عرفت بأننا في ترعان لأنها تعرف مدى حبي لها، فقطعت عدة كيلو مترات ورأتني هناك أمرح وألهو مع قاسم ابن أختي، وما كان من قاسم إلا أن ترك خاله الصغير وحيدًا إذ ولّى هاربا ولم يعقب لأنه كان يخاف من ضرة جدته لشدتها وقوتها، أما محمود المسكين فعاقبته أمه عقابا شديدا إذ أمرته ان يخلع نعليه وكانت كلما رأت شوكا تمشيه عليه حافيا يتألم وينزف الدم من قدميه إلى أن وصلا إلى لوبية.

آثار في حارة العجاينة:

تتكون لوبية من عدة حمايل منها الشهايبة، العطوات، الكفارنة، السملوت، الحجاجوة، الفقراء، والعوايدة والعجاينة وكل حمولة لها حارة تسكن فيها وأما حارتي فأذكر من وصفها ما يلي:

كان في حارتنا بناء مهجور يسمى بناء الشيخ محمد وهو عبارة عن مسجد أو زاوية فيها آثار تعود لعصور إسلامية قديمة كانت النسوة يأتين إليه ليلا يوقدن به شمعا أو سراجا ولديهن قناعة ببركة هذا المكان وكان هناك أيضا فيها بناء قديم يملكه شخص اسمه الشيخ علي الأحمد هو من العجاينة وكان معارضا

لإبراهيم باشا عند دخوله لفلسطين سنة 1838 تم إعدام الشيخ علي الأحمد على يد إبراهيم باشا الحاكم المصري كما ذكرت سابقا، وتم هدم العقد ويقال بأنهم نفوا ذريته إلا إن ابنا له أو حفيدًا تم نفيه إلى مصر وبقي فيها عشرين عاما وقدم إلى لوبية زائرا، وكان شابا ابن خمسة وعشرين عاما وكان يتكلم اللهجة المصرية والطريف بالموضوع أنَّ نسوة لوبية سلمن عليه وقبلنه، وهو أيضا قبلهن وكان يقول "يلي بوجبني بوجبو" أي الذي يوجبني أوجبه، وكان ينطقها بلهجة أهل مصر هكذا روى لي من شاهد تلك الحادثة أو نقلها عن غيره.

ذكريات مع جدي قاسم العيساوي عام 1935

كان جدي قاسم من وجهاء ترعان، ولديه مضافة كبيرة، تدار بها القهوة المرة، على مدى اليوم كله، وكان رحمه مضيافا واصلا لرحمه، محسنا لجيرانه، بارا بأهله.يحل مشاكل أهل ترعان، ويوفق بينهم كان فارسا شهما عنده فرس أصيلة، يركب الخيل ويسافر بها لبلاد كثيرة.

كان مجدا بعمله ومحبا له، ومتخصصا بعمل "التون " وهو عبارة عن عملية تكليس الأحجار إذ يقوم بإشعال النار في حفرة بالجبل او السهل، ويلقي بها حجارة من نوع خاص وتبقى النار مشتعلة لمدة يومين أو ثلاثة في البلان، حتَّى تتأكسد، وتتحول إلى كلس ناعم، فيبيعها للمدن والقرى المجاورة لأغراض البناء.

وكان خالي أحمد ساعده الأيمن في هذه المهمة، وكنت صغيرا وقتها أرافق جدي وخالي في بعض الأيام وأساعدهم بهذه الاعمال، وأسهر معهم، على الجبل فرحا بما يقومون به، وأتعجب كيف تتحول هذه الصخور القاسية، عندما تنضج إلى كلس ناعم أبيض، وكان جدي يحبني ويدللني، كيف لا وأنا حفيده الأول، وقرة عينه.

وهو بجانب عمله في الحجارة كان أيضا مزارعا يحب عمله ولديه مقثاة، يزرع بها الفقوس والشمام والبطيخ، وكان أيضا مولعا بزراعة السمسم.

وحدثتني والدتي رحمها الله عن ذكرياتها مع أبيها وهي صغيرة وابنة تسع سنوات، أن والدها كان قد أحضر حفارا بدويا من عوجة حفير، ليحفر لهم بئرا قرب حديقة المدرسة، ويقول لها البدوي بلهجته: "نبغا فلوس يا عجية، من أبوكِ" فكانت ترد عليهم بذكاء وفطنة: "لا تعطي العامل أجره قبل أن يجف عرقه، لما تخلصوا أبوي بعطيكوا مصرياتكو " .

ومن ذكريات أمي أيضا مع أبيها، أنَّه في العهد العثماني، كان جنديا، ولصعوبة الخدمة آنذاك، شكل جدي قاسم فرارا، من الجيش، ولاذ بين الوعر والجبال مختبئا بينهما.

فجال الإنكشاري العثماني، يبحث عنه، وعندما ألقوا القبض عليه، حلقوا له ذقنه، وبعدها هرب مرة أخرى، و اختفى حياء لأنه غدا بلا ذقن وظل متواريا عن الأنظار حتَّى طالت لحيته.

كان أيضا يقضي أكثر أوقاته بقراءة القرآن الكريم ، وصوته جميل، ولديه مصحف طبعة الديار المصرية بخط كبير، كان قد أهداه إياه خالي الشهيد نمر، وأنا شاهدت هذا المصحف صغيرا وكبيرا، ولا أدري إن كان أخوالي قد احتفظوا به فيما بعد.

أذكر أيضا بيت جدي قاسم كان بيتا كبيرا، واسعا، يتوسطه بئر، تدخل له من بوابة كبيرة، من الجهة القبلية، على يساره غرفة صغيرة، وبعدها يوجد متبن وهو عبارة عن بناء للماشية، ثم بيت العائلة، و فوق المتبن يوجد علية نطلع إليها بدرج، وخلف بيت العائلة بنى جدي العقد، والعقد عبارة عنه بناء حجري مسقوف، بحجارة متشابكة، ومن الجهة الغربية بالدار، يوجد غرفة صغيرة كانت تسكنها

قريبة جدي قاسم ربما كانت ابنة عمه أو ابنة أخيه كان رحمه الله محتضنا لرحمه فأبقى قريبته في بيته، وهي عجوز لم تتزوج، اسمها حمدة عيساوي، كانت طيبة وكريمة وحنونة وكنت أحب الجلوس معها، وكانت تروي لي حكايات جميلة ومشوقة، وفي إحدى المرات زارها أحد أقاربها من بيت نايف، وكانت تريد أن تعطيه شيئا، فقالت له: اصعد على الطبلية، وهات البيض من الكوارة، وعندما دعس على الطبلية تعثر فسقطت الكوارة على رجليها، وانكسرت أقدامها، فقالت له اهرب بسرعة، قبل أن يراك أولاد قاسم، فيجازوك، بعد هذه الحادثة توفيت، رحمها الله ودفنها جدي في مدفن ال غبن، وسألت جدي قاسم مرة ما أصل حمولتكم ولما سميتم آل غبن، فأجابني إن لدينا جذرا من مدينة حلب السورية، ومن منطقة هناك، اسمها غبن، وهاجرت هذه العائلة واستقرت في ترعان.

كان جدي قاسم متزوجا من جدتي ريما، والتي توفيت يوم كان خالي نمر وأمي صغيرين، أنا لم أدركها، وقامت جدتنا الكبيرة كرمة حجازي وهي أم قاسم بتربية حفيديها نمر وآمنة، والإشراف عليهما، وبقيت مرافقة لخالي نمر منذ صغره، حتَّى زواجه ورافقته لمدينة بيت لحم، عندما ذهب لعمله هناك بالشرطة، وكانت ترشد زوجته هنية لأنَّها كانت صغيرة، وتعلمها الطهو، وتربية الصغار، وبقيت معه طيلة غربته وكان أيضا معهم خالي محمود الذي كان مولعا بأخيه نمر، وبقي معه هو والجدة كرمة ببيت لحم حتَّى نال خالي محمود الثانوية العامة، حيث كان خالي نمر مسؤولا عنه، وعن دراسته.

أعود لجدي قاسم، كان لديه ثلاثة من الذكور هم نمر وأحمد ومحمود، أما من الإناث، آمنة وزهرة، وصبحية، وكان قد زرع بينهم غراس المحبة، لم يفرق بينهم أبدا، ورباهم على تقوى الله، وقد تزوج جدي قاسم بعد وفاة زوجته ريما من قريبته آمنة الإبراهيم، وأنجب منها خالي محمود وخالي أحمد وخالتي زهرة

وخالتي صبحية، خالتي زهرة تزوجت بكفر كنا أنجبت ذرية طيبة وكانت بدل بزوجة خالي أحمد وحضرنا عرس خالي أحمد في ترعان، ذهبت مع والدي ورجال كثر من لوبية إلى ترعان، واحتفلنا بزواج خالي أحمد وعروسه ابنة قرية كفركنا، أما خالتي صبحية تزوجت من عائلة الزرعيني من ترعان وأيضا أنجبت ذرية طيبة مباركة، أولادها على خلق ودين. وقد توفي جدي قاسم وكان تقريبا بمنتصف السبعين من عمره، وكم حزنت على فراقه، رغم صغر سني، ولكنَّ الذي يواسي أنه ترك وراءه رجالا ونساء يعتمد عليهم.

الثورة الفلسطينية الكبرى 1936 واعتقال أمي:

كان الشيخ السوري عز الدين القسام قد وصل لحيفا هاربا من الاستعمار الفرنسي قد شكّل مجموعات للمجاهدين من خلال عمله خطيبا لجامع الاستقلال بالإضافة إلى عمله كمأذون شرعي إذ إنه يمر على القرى القريبة من حيفا ليعقد القران للمتزوجين ويأخذ البيعة من المجاهدين وامتد نشاطه حتى قرية صفورية، وفي عام 1935 اكتشف نشاطه واشتبك ومجموعة من رجاله في يعبد قضاء جنين واستشهد مع ثلاثة من رجاله وحملت جثته إلى حيفا ودفن في بلد الشيخ بعد أن شيعه كل أهل حيفا ومحيطها ، وبعد استشهاده بدأت الثورة في أغلب البلاد حيث أعلن الشعب الفلسطيني الإضراب العام عام 1936 في شتى بقاع فلسطين وأغلقوا محلاتهم وامتنع الموظفون من نزولهم لوظائفهم، وكان للوبية نصيب كبير من البطولات آنذاك فقد كان الإنكليز يطاردون الثوار ويقومون بمداهمة المنازل وتخريبها بحجة البحث عن الثوار.

كنت ابن ثماني سنوات أركض مع الثوار وأختبئ معهم بالكروم والمغارات، وذات يوم عثرت على رصاصة جميلة ربما نسيها أحد المجاهدين

أو وقعت منه دون أن يشعر بها، وضعتها في جيبي وكأن الدنيا بأسرها حيزت لي فرحت فرحا شديدا، وخبأتها في البيت ألهو بها بين الفينة والأخرى دون أن يعلم بها أحد من الأهل في البيت، ومن سوء حظنا أنه وفي أثناء تفتيش منزلنا وجد الجنود الإنكليز هذه الرصاصة بين متاعنا حيث خبأتها تحت آخر الفرشات التي لا تستعمل إلا عند حضور عدد كبير من الضيوف باعتقادي أن هذا المكان آمن!!

في هذا الوقت كان الظلم البريطاني على أشده وكان تطبيق الأحكام العرفية جائرًا دون رحمة فأرادوا أن يقمعوا ثورة الشعب الفلسطيني من خلال تلك الأحكام الجائرة، ومن سوء الحظ أن والدي كان مسافرا ليقايض بمحصوله في مدن حيفا والناصرة، فتم حجز والدتي آمنة قاسم العيساوي من أجل هذه الرصاصة واعتقلت لمدة ثلاثة أيام وكانت ترضع أختي منيفة أو نايفة لا أستطيع ان أحدد أيا منهما.

ولما عاد والدي من سفره ولما علم باعتقال زوجته سرعان ما ذهب وسلم نفسه حتَّى تخرج أمي إلى رضيعتها التي ملأت البيت صراخا، وتم إخلاء سبيلها، واعتقال الوالد بحكم عرفي حيث تم ترحيله إلى سجن عكا، وكَّلت أمي محاميا للدفاع عنه اسمه "حنا عصفور" من الناصرة ورفض أن يتقاضى أجرا، فكان الدفاع مجانيا وقال أثناء المرافعة بأن الشيخ إبراهيم رجل طاعن في السن وعاقل، ولا يمكن لهذا الرجل العاقل أن يحتفظ برصاصة، ونوه إلى احتمال أن أحدا من جند الإنكليز قد افتعل ذلك وضع الرصاصة بين متاعه... وبعد جلسات عديدة استغرقت ثلاثة أشهر وتم إخلاء سبيل والدي وسط فرحة عارمة.

وفي عام 1938وصلت الثورة لذروتها وأجيجها فكان الإنكليز يعتقلون أي شخص لمجرد الاشتباه به أو أي شخص يجدون عنده قطعة حديد أو كماشة

فيقومون بهدم البيت واعتقال أصحابه وكانوا ينفون المجاهدين إلى "عوجة حفير" قرب الحدود المصرية وهذه المنطقة صحراوية وشديدة الحرارة.

وصف عرس خالي نمر قاسم عيساوي سنة 1938م.

استيقظنا في الصباح الباكر، وألبستنا أمي ثيابنا الجديدة، واتجهنا إلى قرية ترعان، التي تبعد عن قريتنا لوبية مشيا على الأقدام نصف ساعة، كان والدي قد سبقنا ومعه، خاروف علول، واصطحبت أمي أناسا كثرا من قريتنا، أذكر منهم آمنة الرشيد، جارتنا وصديقة أمي.

استقبلنا خالي نمر مهللا ومرحبا، ورمى علينا ملبَّس أبو نوارة، محشي باللوز. وأثناء الحمام سمعت أغاني حلوة مازالت في ذاكرتي:

عابر على الحمام ريتو هنايا
هاتوا بدلات الجوخ للعريس. هدايا
عابر على الحمام ريتو هنية
هاتو بدلات الجوخ للعريس هدية
عابر على الحمام يا امو تعالي
هاتو بدلات الجوخ للعريس الغالي

وجرت لخالي زفة ليس لها مثيل، وذهبنا إلى قرية البعينة لنحضِّر العروس، وكانت معزومة عند بيت خالها، وهكذا جرت العادة أن يقام العرس ببيت خال العروس.

كانت عروس خالي هنية أجمل عروس رأتها عيني، جميلة بيضاء ومبتسمة دائما، تسر من رآها.

وكانت زفتها كبيرة جدًا، فيها الخيول والجمال، ومشينا وراءهم من البعينة إلى ترعان.

أما عرس الرجال، فكان في أرض من أملاك جدي قاسم عيساوي، اسمها "زتونات الشعيرة"، ذبحت فيها الذبائح، وأقيمت بها الولائم، وكل أهل ترعان أكلوا في هذا اليوم، وكانت الدبكة والسحجة قائمتين، والشباب على طرود الخيل يتسابقون ويستعرضون.

وجاء المعازيم من كل القرى المجاورة من الشجرة ومن كفر كنا والبعينة ولوبية والمشهد وغيرها من معارفهم، حيث أن جدي قاسم كان له معارف وأحباب كثر، وكان لديه مضافة كبيرة، تدار بها القهوة المرة طيلة اليوم. وكان بيته كبيرا وواسعا، فيه عدة دور، أذكر الدور الأرضي، الذي تحول فيما بعد إلى مركز للشؤون الاجتماعية، والمضافة تحولت إلى ملحمة لبيع اللحوم.

أما العقد فكان يقع على الزاوية الشمالية من البيت العربي، (هو بيت مبني من الحجر فيه أعمدة وقناطر تقام فيه المناسبات).

أنجب خالي ذكورا وإناثا، أكبرهم وليد وأصغرهم أسيد، وكان يعمل بالشرطة، برام الله، وقبلها كان يعمل بشرطة بيت لحم، وبعد سنوات ترك وظيفته في الشرطة، وعاد ليستقر في ترعان، والتحق بعدها بشرطة الناصرة، وفي عام 1948 ترك الشرطة والتحق يقاتل مع المجاهدين واستشهد في معركة الشجرة كما سأذكره في حينها.

زيارة بيت لحم في نيسان/ 1938م

في صباح ربيعي جميل، وكنت وقتها ابن عشر سنين، قررت أمي آمنة زيارة أخيها نمر الذي كان مقيما في مدينة بيت لحم بحكم عمله في الشرطة، وكانت أختي نايفة الرضيعة بصحبتنا وكنت أحبها حبا جما، كيف لا وهي أختي الصغيرة. فحملتها بين ذراعي الصغيرتين وركبنا الباص الذي كان يأتي إلى قرية لوبية،

بميعاد محدد وهو تابع لشركة العفيفي أو جرجورة، فرحت بركوب الحافلة، متمتعا بالمناظر الخلابة، من كروم وبيادر وأشجار على جانبي الطريق. وصلنا بيت الخال نمر، والذي أحسن استقبالنا هو وزوجته هنية السليمان، ابنة قرية البعينة وهي أيضا ابنة خاله.وكانت جدة أمي كرمة الحجازي، تعيش مع الخال نمر، في بيته.وأثناء الحديث، ذكرت الجدة الكبرى كرمة أنَّ لديهم معارف، في القدس، يقطنون في حي سلوان.واقترحت أن نرافقها لزيارتهم، فوافقت أمي ولكنها وقبل الزيارة عرجت إلى مشفى البقيعة في القدس لعلاج عينيها الجميلتين الزرقاوين، واللتين كانتا قد أصيبتا بالرمد، وبعد العلاج ذهبنا إلى معارفنا في بيت سلوان، وكنت أثناء هذه الزيارة قد حفظت معالم الطريق بين بيت لحم والقدس ورسمتها في مخيلتي.

وأثناء جلوسنا عند عائلة الجاعوني، في بيت سلوان اجتمعت نسوة كثيرات، وتعالت أصواتهنَّ بين هرج ومرج، فانتابني شعور بالملل وتسللت خارج المنزل، دون أن يشعر بي أحد، واتجهت إلى بيت لحم، مشيًا على الأقدام، وكانت المسافة بينهما قرابة ثمانية كيلو مترات، عبرت حي المدبسة، مرورا بكرم اللوز وكرم التين جنوب بيت جالا، وبيت ساحور.

وصلت بيت خالي نمر هناك، والذي تعرفت عليه قبل أيام عندما شعرت أمي بغياب ولدها جن جنونها، وأخذت تبكي، وخرجت للشارع مع النسوة اللواتي كن معها يبحثن عني ويسألن المارة، إلى أن أخبرهم أحد الجيران، بأنه لمح صبيا بهذه الصفات، متجها إلى طريق يؤدي إلى بيت لحم، فدبت الروح في جسد الأم المسكينة من جديد وهرعت إلى بيت أخيها نمر مستقلة أول حافلة هناك ولما وصلت وشاهدتني حتَّى اطمأنَّ قلبها وهدأ، ولما عاتبتني عما فعلته، قلت لها: "يما أنا ما بحب خرفيات النسوان عشان هيك مشيت، ورجعت لبيت خالي نمر"

زيارة للقدس للمرة الثانية سنة 1939.

الهدف من هذه الرحلة، زيارة خالي محمود قاسم العيساوي، الذي كان طالبا مجدًا، في الثانوية الرشيدية بالقدس، وكان يعيش في بيت أخيه نمر" أبي الوليد"، في مدينة بيت لحم، قرب كنيسة المهد.

كان عمري أحد عشر عاما، لن أنسى يوم خرجت من قريتي لوبية، عصرًا دون علم أهلي، واتجهت جنوبا، مرورا بقرية الشجرة، ثم نزلت في مكان اسمه خان التجار، حيث تقطن عشيرة الصبيح البدوية وبعدها مشيت باتجاه جبل طابور وبعد ذلك اتجهت إلى "مسحة" وهي مستعمرة يهودية وبعدها تابعت سيري جنوبا إلى وادي الشرار وكنت متعبا جدا، ولم أستطع متابعة السير من كثرة ما مشيت.

لمحت بيتا عن بعد فهرعت إليه أطرق بابه، ففتح لي أهل البيت مستغربين، وسألوني: أين جهتك يا عجي؟ (باللهجة البدوية عجي معناها ولد) ومن أين أتيت؟ فقلت لهم: أنا قادم من لوبية وأنا ابن الشيخ إبراهيم الخليل، وكنت قاصدا مدينة القدس، لزيارة خالي فأدخلوني بيتهم، وأكرموني، وبت الليلة عندهم وفي الصباح أعدوا لي إفطارا، والتهمته بسرعة من شدة الجوع، ثم ودعتهم متجها إلى العفولة، ومنها إلى جنين. حيث وصلتها عصرا، فأنهكني التعب، وشعرت بالإعياء، فبت في مضافة قرية قباطيا، وفي الصباح أحسست بالراحة بعد نوم عميق، فتوجهت إلى نابلس التي وصلتها مع المغيب وتابعت سيري، فوصلت إلى قرية حوَّارة عشاء ولمحت جماعة يتسامرون على أطراف القرية فما أن اقتربت منهم، حتَّى توجسوا مني وسألوني:

من أين أنت يا ولد؟

قلت لهم: من لوبية، متجها لزيارة خالي في القدس.وسمعتهم يتهامسون، بصوت منخفض: "ممكن أهل لوبية باعثين الولد يتجسس علينا، ويعرف أخبار تجارتنا"، فعلمت ساعتها أنهم تجار.

وبعدما وثقوا بي، سمحوا لي بالمبيت قريبا منهم، وفي الصباح، ودعتهم متجها إلى الجنوب فدخلت قرية بيت نمرين، ثم مررت بطلعة اللّبن وكان الطريق جميلا شبيها بطريق الحمة ثم اجتزت كروم الزيتون، ووصلت لمنطقة اسمها – دورة القرع– مرورا بقرية –ترمس عيا– إلى ان وصلت إلى رام الله، ومنها إلى بيت لحم حيث وصلتها عصرا، وبعد عناء طويل وصلت إلى بيت خالي نمر ففتحت لي زوجته الباب، وبادرتني بالسؤال مندهشة وينك يا ولد؟ أهلك بدوروا عليك من أربعة أيام؟. فأدخلتني البيت وبعدها قدمت الطعام والشراب وكنت جائعا جدا، وجاء خالي من عمله، وهنأني بسلامة الوصول وعتب علي مشفقا من هذه الرحلة المضنية التي ترجلت بها طيلة أربعة أيام، وقطعت خلالها 160كيلو مترا سيرا على الأقدام وسرعان ما اتصل ببعض المسافرين المتجهين إلى لوبية من القدس ليخبروا أهلي ويطمئنوهم .

عندما علم والداي بوجودي عند خالي، طلبوا منه أن يرجعني إلى لوبية فورا، فرد عليهم رحمه الله أن عودته بسرعة هكذا غير لائقة بحق خاله، وكيف وقد قطع كل هذه المسافة، ويرجع مباشرة على الأقل يرتاح عندي أسبوعا!!.

وبالفعل بقيت بضيافة خالي أسبوعا، وكانت من أجمل أيام عمري، وخلال هذا الأسبوع حققت الغرض المرجو من الزيارة، فقصدت الثانوية الرشيدية، بالقدس إذ تفاجأ خالي محمود بزيارتي له، وكنت أحبه كثيرا، كيف لا وقد قطعت كل هذه المسافة وعانيت من أجل الوصول إليه، وغامرت لرؤيته، وفرح برؤيتي وأحسن ضيافة الغلام القادم من لوبية ولكنه عتب علي

لأنني لم أبلغ أهلي بسفري هذا، وبعد جولة جميلة في القدس والأقصى وأحيائها الجميلة عدنا معا إلى بيت لحم.

بعد انقضاء الأسبوع الذي اتفق فيه خالي نمر في ضيافته مع أهلي أوصلاني الخالان إلى محطة الحافلة المتجهة إلى لوبية، بعدما أعطياني نقودا وهدية لأمي، كما أنهما دفعا أجرة الطريق بالباص شكرت لهما حسن ضيافتهما، واجتزت عدة مدن إلى أن وصلت لقريتي لوبية، وكانت أمي قد حضرت لي العصاة "ووين الجنب يلي بوجعك يا محمود".

محاولة السفر للقاهرة 1940

كان عمري أقل من اثني عشر عاما عندما قررت السفر إلى مصر، رغبة بتلقي العلم في الأزهر وكنت قد وفرت ثلاثة جنيهات فلسطينية، لمصاريف السفر، ركبت عصرا باصا من لوبية متجها إلى طبريا، ثم إلى سمخ، وفي محطة القطار لمحت قطارا قادما من الشام جهته إلى حيفا، فاستقليته، ودفعت الأجرة عشرة قروش.

اجتاز القطار الغور ثم بيسان ومررنا بمرج ابن عامر، وضواحي حيفا، ثم وصلنا حيفا ليلا.

أويت إلى أحد الفنادق المتواضعة، ودفعت أجرة المبيت خمسة عشر قرشا، وفي الصباح ركبتُ باصا متجها إلى يافا، ثم اتجهت إلى غزة وبعدها إلى خان يونس، ثم إلى رفح الفلسطينية.

تجولت في رفح وهي صغيرة جدا وسكانها قليلون وهي تحاذي خان يونس ومما لفت نظري فيها أنني رأيت جنودا إيطاليين أسرى يعملون في حفر جبل وربما يكون هذا الحفر نوع من الأشغال الشاقة لتعذيبهم أو لتنفيذ شق طريق

تحتاجه القوات البريطانية، وشاهدت سوقها ورأيت الناس يتاجرون بالمقايضة يأخذون الخضراوات ويدفعون بالقمح والشعير وهكذا ، وسألت عن طريق مصر، فدلوني على بوابة تفصل بين رفح الفلسطينية، ورفح المصرية. وصلت البوابة، وسألني حرس الحدود المصرية:

ـ وين جهتك يا معقد؟

(بلهجة أهل البدو المعقد، العازم على السفر)

ثم قال:

ـ وين باسبورتك؟وين تيكتك؟

فقلت لهم:لا يوجد معي شيء، فضربني أحد الحراس كفين، وأعادني إلى رفح الفلسطينية، ونمت هناك ليلتها وفي الصباح، تجولت في رفح وسألت عن الطريق الجبلي المؤدي إلى مصر لأنني عزمت على التعرف على طريق التهريب.

خرجت من رفح متجها إلى صحراء النقب، رأيت خربة للبدو، وسألت عن مقعد العرب أي مضافتهم، فدلوني وسهرت مع البدو وسمعت سوالفهم، وبقيت بضيافتهم يومين ورأيتهم كيف يستخدمون الإبل، في حراثة زرعهم، وشربت من لبن النوق.وبعدها غادرتهم متجها إلى الجبال ماشيا تائها.فالتقيت بامرأة بدوية شهمة فأشفقت على حالي، فأرشدتني إلى مضاربهم وبت عندهم وفي الصباح أوصت بي رجلا من عشيرتها، إذ أوصلني إلى عوجة حفير.قرب الحدود المصرية، ولكنني فوجئت بطلبه! إذ أمرني بنزع حذائي، وأخذه معللا ذاك بأنه يتقاضى أجره.

فقلت له: كيف سأمشي حافي القدمين، قال:لا ضرر عليك الطريق مفروش بالرمل فنزلت عند رغبته وخلعت حذائي وقدمته له وأنا مكره وعاد من حيث أتى.

مشيت قرابة أربعة كيلو مترات حافيا، وكانت الرمال حارقة، لمحت رجلا قادما من الغرب على حماره، فأوقفني، وسلم علي، وسألني عن جهتي، فقلت له: قاصدا مصر عبر الجبال، فقال: إياك أن تفعلها فالشرطة المصرية والسودانية، تحيط بالجبال، وقد تطلع عليك فجأة وترميك بالرصاص.

أشفق علي واصطحبني إلى مقر عمله حيث كان يعمل بحفر(الهراب) وهي عبارة عن بركة ماء يتم حفرها لجمع المياه بها كخزان، وبقيت معهم لمدة تجاوزت الشهر، كنت أعمل بالحفر مقابل أكلي وشربي وكان عملا مضنيا وشاقا ولكن أين المفر ومع من؟

وفي إحدى السهرات ونحن نتجاذب أطراف الحديث، أخبرتهم بأن أخوالي من ترعان، فذكر لي أبو شحدة أنه حفر لجدي قاسم العيساوي بئرا سنة 1912م شرقي قرية ترعان.

فرح أبو شحدة بهذا الحديث وبصلة القربى مع زبونه القديم فصار يتودد لي وأخبرني أنَّه سيتجه لبئر السبع؛ لزيارة أسرته وجلب التموين لرفاق عمله وطلب مني أن أرافقه، وذهبت معه ولكنه تركني أمانة في مضافة العرب، عند شيخ العزازمة.

أكرمني شيخ العزازمة، وأهداني حطة وعقالا ومشاية (حذاء)حيث أنني كنت ما أزال حافيا، وفي الصباح الباكر تسللت من المضافة قاصدا بئر السبع حيث قررت الرجوع للوبية بعد أن استحالت خطتي في الوصول للقاهرة ، وسلكت بعدها طرقات مؤدية إلى الخليل مترجلا، فدخلت قرية الظاهرية، ووجدت فيها الزاوية الخلوتية، وهي مكان لمبيت الغرباء، وتعشيت بها خبزا ودبسا، ونمت الليلة، وفي الصباح اتجهت لقرية حلحول، ثم عرجت شمالا إلى القدس، ومنها إلى بيت لحم، قاصدا مكان عمل خالي نمر في مقر الشرطة.

فوجئ خالي عندما رآني بملابس البدو، واصطحبني إلى بيته، وسهرت عنده وحدثته عن البدو وعاداتهم والقهوة المرة التي كنت أول مرة أتذوقها بحياتي، وكيف أنَّهم يربون الماعز والجمال، ويزرعون الشعير، حدثته عن جمال عوجة حفير، وواحاتها الغناء.وحدثته عن نبتة اسمها الرطم، تنمو في الصحراء ويستخدمها البدو كطعام لهم.

سر خالي بمغامراتي، ورحلاتي، وأخبرني بأن أمي قلبها مرتاح، وأنَّها لم تبد أي قلق، حيال غيابي الطويل، وقد بيضت حيطان بيتها، استعدادا للعيد، وجل الناس كانوا مستغربين، كيف أن الترعانية قلبها مطمئن، مع أن ابنها صار له غائبا لأكثر من ثلاثة أشهر.

وفي الصباح أوصلني خالي ، إلى المحطة، وركبت الباص المتجه لطبريا، وبعدها إلى قريتي لوبية، وكنت خائفا من أمي، فدخلت من بين كروم الزيتون، فلمحني أخي أحمد "رحمه الله" الذي انطلق مبشرا أمي:

ـ محمود إجا يما

طلعت أمي وكانت غاضبة، وسألتني وين كنت يا قاروط العزا، وانهالت علي ضربا، ومن أجل ربطي في القرية والأهل ضغط علي الوالد أن أعمل عاملا يوميا في منطقة مسحة.

الرحلة الرابعة إلى شرقي الأردن، سنة 1942

إبان الحرب العالمية الثانية كان عمري أربعة عشر عاما كنت أعمل في منطقة "مسحة" قرب الشجرة بمحاذاة جبل طابور، بورشة لإصلاح الطريق العام، وكان رئيسي بالعمل اسمه عبود السعيد من لوبية، وكنت يوميا أذهب إلى العمل راكبا على الدابة برفقة أخي أحمد ذهابا وإيابا.

وفي إحدى الأيام خطر على بالي أن أذهب لشرق الأردن فطلبت من شقيقي الصغير أحمد ألا يحضر عصر اليوم لأعود معه إلى لوبية فأنا أدبر حالي.

تركت عملي عصرا، متجها شرق مسحة عبر السهول، ومررت بقرية سيرين إلى أن وصلت قرية كوكب الهوى، وهى مرتفعة تقع على سفح الجبل، وكنت قد سمعت بأن زوج أختي حسنة (أبو قاسم) لديه معارف فيها، فسألت عنهم ودلوني عليهم ورحبوا بي وضيفوني وأخبرتهم بأن وجهتي الأردن، فوصفوا لي الطريق وقالوا:في الصباح إن شاء الله ستتجه للشرق وستجد عشيرة البشاتوة، وهناك ستجد شخصا مختصا باجتياز النهر (نهر الأردن).

ذهبت إلى البشاتوة ومكثت قرب النهر إلى أن غابت الشمس، فقدم الرجل المعني والخبير بالتهريب، وسألني أين جهتك؟ فقلت له شرقي الأردن، فقال في الصباح سنجتاز النهر، لأن المياه تكون هادئة وخفيفة صباحا.

نمت ليلتها متعبا، وفي الصباح قطعنا النهر مشيا على الاقدام، من مخاضة (العبد سليمان) كانت المياه تصل إلى الركبة، ثم ودعني الرجل وانتهيت من رحلة النهر، فاتجهت شرقا عبر الهضاب، حتَّى وصلت إلى بلدة اسمها الشونة الشمالية، وبعد اجتيازها مررت بجانب مقام الصحابي الجليل (معاذ بن جبل) رضى الله عنه وأرضاه.وبعدها عرجت شرقا إلى إربد فوصلتها مع العصر فوجدتها مدينة صغيرة تشبه القرية الكبيرة فيها مسجد وحيد كبير مبني من العهد العثماني، ورأيت العمال يرفعون له مئذنة شامخة، وسرت في شارعها الرئيس الوحيد ودخلت سوقها فاستغربت من بائع يبيع الأسلحة الحية من مسدسات وبنادق وخناجر، ورأيت بعض تجار المواشي قادمين من فلسطين لشراء المواشي، ثم غادرت إربد ومشيت لمدة ست ساعات مارا بكثير من القرى أذكر منها قرية (قم، البارحة) ثم تابعت مسيري قاصدا مدينة عمان، مرورا بقرية حوارة

الشرقية، ومنها دخلت إلى عمان وهي لا قرية كبيرة ولا مدينة صغيرة بين بين، تحيط بها الجبال والوديان المرتفعة وهي مدينة صغيرة جدا بالمقارنة بالقدس وطبرية وعكا لم أر فيها إلا شارعا رئيسا واحدا، فيها أسواق صغيرة متواضعة وأما أشهر تجارها فكانوا من الشوام يأتون بالبضائع من دمشق ويبيعونها لأهل عمان وللقادمين إلى سوقها، وأصبحت عاصمة لشرق الأردن وفيها مقر الحكومة رأيت فيها القصر الملكي الذي يتربع به الملك عبد الله بن الحسين ورأيت بعض السكان بملامح غير عربية؛ أعتقد أنهم من الشيشان أو الشركس، ومباني قليلة بعضها قديم وبعضها قيد الإنشاء، زرت المدرج الروماني وكان في القسم الشرقي منها وبعدها ودعت عمان ثم عرجت إلى قرية البويضة التي وصلتها مساء وكنت مرهقا من التعب وأعاني من شدة الجوع، فآويت إلى بيت وشرحت لأصحابه بأني غريب وانقطع بي الطريق فأحسنوا استقبالي وأكرموني، وبت الليل عندهم، وسألوني عن سبب زيارتي للمفرق فأخبرتهم: أني أريد زيارة أقرباء لي في معسكر المفرق وهم (نايف محمد الحسن، وفايز العموري) كانا قد التحقا بالجيش في قوة حدود شرقي الأردن.

لم يقصروا دلوني على الطريق فوصلت المفرق فدخلتها وهي تعتبر الحد الفاصل بين الأردن والعراق وهي مركز لقوات الحدود تسكنها العشائر البدوية أشهرهم بنو حسن وهي قليلة الأبنية والحضارة، وصلت عصرا ومنها سألت عن المعسكر فدلوني عليه، وأخيرًا وصلته وسألت عن صاحبيَّ، فأجابوني بأنهم في فرقة أخرى، والتقيت بقائد المعسكر فرحب بي ترحيبا شديدا وقدم لي الطعام والشراب، قال لي: أنت ضيفنا اليوم يا محمود.

ارتحت لتكريمي لا سيما بعد التعب والجوع، وأحببت عمل الجنود ولما سهرت مع القائد أخبرته برغبتي بالالتحاق بالجيش، أي التطوع فاستحسن الرأي

وأرسلني صباحا بسيارة عسكرية إلى إربد، ومنها إلى جسر المجامع حيث المركز الطبي التابع لقوات الحدود، والتقيت هناك بشخص آت من قرية صفورية للغرض نفسه، وهناك عرضنا على لجنة طبية فحصوا نظرنا وبعدها قالوا إننا لا نصلح للتطوع!!

وعند المغيب أمنوا لنا سيارة أوصلتنا إلى القدس، ثم اتجهنا إلى سمخ ثم مررنا بطبريا ومنها إلى الجاعونة ثم إلى صفد مجتازين جبال الجرمق، ثم اتجهنا جنوبا إلى الرابية ثم مرج الذهب، ثم انزلنا السائق في مسكنة ومشيت بعدها برفقة الصديق الصفوري إلى أن وصلنا لوبية، وبات صاحبي معي في بيتنا بعد أن عشتنا أمي وهي غاضبة مني بسبب اختفائي إذ كنت قد تغيبت ثلاثة أيام وبعد وداع الضيف سألني والدي:" وين كنت يا مغضوب" فقلت لهم وصلت شرقي الأردن وعدت.

الذهاب لحيفا والعمل في الشرطة 1943.

في سنة 1943طلبت من والدي أن يسمح لي بالذهاب لحيفا للتطوع بالشرطة، (البوليس الفلسطيني الإضافي) وبعد المشاورات مع الأهل والاقارب والجيران، وافق وراقت له فكرة التطوع فربما أحبَّ أن أرتبط بعمل حتَّى لا أغامر بالرحلات.

أخذت متاعي وودعت أهلي على غير عادتي هذه المرة، لأني اعتدت السفر دون وداع، ركبتُ باصا من محطة طبريا متجها إلى حيفا ، وصلت مركز التطوع في الصباح قابلت المستر (آمري) وكنت أقف في طابور طويل، وقام المستر باستعراضنا.

وعندما جاء دوري، سألني: ما اسمك؟

فأجبته: محمود إبراهيم الخليل

ـ.ومن أين اتيت؟

أجبته: من لوبية.

فرد: لوبية No...No..

حتَّى الإنكليز محروق دمهم من اللوابنة!! تداركت الأمر وأحببت أن اطمئنه قليلا حتَّى لا أرجع لقريتي خالي الوفاض

فقلت له: ولكن أمي من ترعان وأنا أعيش مع أخوالي.

فقال: " Maybe " أي ممكن.

ودخَّلني عند الشاويش حنا، وهو مسيحي من كفركنا، والتقيت هناك بحسين اللبابيدي والد زوجتي أم سميح فيما بعد، كان آتيا للمركز يومها في زيارة بحكم عمله بالبوليس الفلسطيني من قرية الطيرة، وكان مقربا من المستر(آمري) فقال له: لو سمحت حوله إلينا نحن بحاجة إلى أفراد شرطة، فوافق (آمري) بعد أن استحسن الرأي .

سلمني مسؤول المستودع أغراضي، وهي عبارة عن بدلة عسكرية وبطانيات وحذاء عسكري "بوستار" يتناسب مع مقاس قدمي ، وفرحت برقمي العسكري والذي لم ولن أنساه ما حييت 5860، وذهبت مع عمي حسين إلى الطيرة. وهناك خضعت لدورة تدريبة سريعة بعد أن أوصى بي عمي حسين اللبابيدي، وبعد أسبوع نزلت إلى لوبية بإجازة وكنت يافعا ابن خمسة عشر عاما، ومتباهيا بلباسي العسكري وبنظرات أهل لوبية وإعجابهم التي زادتني فرحا.

وبقيت اتنقل بين عدة معسكرات، مرة في معسكر الطيرة، ومرة بمعسكر الجلمة، وغيرهما.

وفي مساء صيفي من ذاك العام كنت مكلف بالحراسة الليلية، لمعسكرنا وكان يصاحبني بتلك الحراسة شخص اسمه أحمد محمود أبو جيدة الملقب بأبي صبحي وسهرنا تلك الليلة وكنا نحمل سلاحا وكان يشاركنا بالحراسة جندي إنكليزي ولما حان تبديل الحراسة قدم إلينا الجندي الإنكليزي اسمه جودي، مبدلا مع صاحبه الإنكليزي، وإذ بجودي يطلق رصاصة بالخطأ فأصابت صديقي أحمد أبو جيدة "أبا صبحي" فهرعنا إليه لنرى الحادث وإذ بصاحبي غارق بدمائه، فحملته وركبنا سيارة الاسعاف واتجهنا إلى مشفى حيفا العسكري وأثناء وجودي معه في طريقنا إلى المشفى سألني يا محمود ماهي إصابتي فقلت له:إنها بسيطة وأدخلته المشفى وكانت الأوامر ان أرجع إلى المعسكر، وفي الصباح جاءنا خبرٌ بأن أبا جيدة قد مات!! فحزنا عليه حزنا شديدا، وقلت لو العكس هو ما حدث لكان مصيرنا عقابا شديدا من الإنكليز بتهمة الإهمال.

وفي سنة 2002 كنت في أداء فريضة الحج وكان معي حفيداي محمد سليمان وسليمان سليمان القادمين من البعينة وشهدا هذا اللقاء الغريب الذي له علاقة بالحادثة؛ عندما التقيت بجماعة من الحجاج قالوا: نحن من الطنطورة ونعيش بالعراق ونحن من عائلة أبو جيدة، وكان المتكلم رجلا عجوزا فاسترجعت شريط ذكرياتي وأخبرته بأنني في يوم ما أسعفت صديقا غاليا أثناء وجودنا في فلسطين بمعسكر "دي آي دي" وكان يحمل اسم عائلتكم فأخبرني الرجل وقال: هو عمي رحمه الله وكنا وقتها قد عرفنا بأن الجندي محمود هو آخر من رآه ومن وقتها تعبنا ونحن نبحث عن محمود لنسأله كيف مات عمي حتَّى مللنا؛ يا سبحان الله واليوم بعد ستين عاما عثرنا عليك لتخبرنا كيف مات عمي!!

وسألني بعد مضي كل هذا الزمن هل قال لك عمي شيئا مهما فأجبته فقط كان يسألني، عن إصابته، رحمه الله، سألته عن عائلة الشهيد أبي صبحي أين حط

بهم الرحال بعد هجرتهم لأرض الوطن فلسطين سنة 1948 فأجابني لجؤوا إلى العراق وهم بخير.

خطبتي عام 1944

كنت أتقاضى مرتبا شهريا مقداره 20جنيها فلسطينيا، وهو مبلغ كبير حينها، وكنت مسرفا أذهب إلى المتنزهات والمسابح أيام إجازاتي أذكر منها مسبح بيت كريم في ضاحية حيفا، ومسبح سان توكس على شاطئ حيفا، ومسبح العزيزية في حيفا أيضا .وكنت مولعا بالكتب والمجلات أشتري منها الكثير؛ أقرؤها ثم أوزعها على أصحابي.

استاء والدي من إسرافي، وكيف أني لا أوفر جنيها واحدا من مرتبي، فنصحه الأقارب أن يزوجني حتَّى ينضبط ابنه ولا سيما بعد أن أصبح موظفا يتقاضى راتبا محترما .

عندما نزلت في نهاية الأسبوع بإجازتي، قال والدي:غدا سنكتب كتابك على جميلة بنت حسين اللبابيدي وكانت أمي وأختي فريجة، قد خطبوها لي وأنا ابن أسبوع في قصة طريفة كعادة أهل القرى في أيامنا السالفة، إذ كانتا أي أمي وأختي تنشران الغسيل على سطح المنزل، فسألت أمي عمي حسين هل ولدت زوجتك أمونة؟

فأجابها:الحمد لله رزقنا بجميلة.

فقالت أمي:هي عروس لابني محمود بإذن الله. ومنذ ذلك اليوم والمقربون من أهل لوبية يقولون محمود لجميلة وجميلة لمحمود.

وجاء الشيخ وكتب الكتاب في مجلس العقد وفرحت فرحا شديدا، وتعالت الزغاريد من أمي ونساء العائلتين، وفرح إخوتي محمد وزبيدة وفريجة وزهرة، وكما فرح أشقائي أحمد ونايف ونايفة ومنيفة.

ولبست جميلة الخاتم وهي في غاية الفرح والسرور وأصبحنا مخطوبين ولم أسعد كثيرا بأيام الخطوبة لأنني في اليوم التالي عدت إلى المعسكر.

وبعد أيام فاجأني والدي بالحضور إلى مكان عملي في معسكر الجلمة وأخبرني أنَّهم قد حددوا موعد العرس، بتاريخ 23/ 9/ 1944، واستأذن من الشاويش موسى سمعان، وهو مسيحي من ترعان، واصطحبني معه إلى لوبية، لإتمام مراسم العرس.

وصف عرسي عام 1944

وصلت مع والدي إلى قريتي لوبية، كان ذاك يوم السبت، قد علمت أن أهلي قد بدؤوا بالاحتفال من يوم الخميس بالتعليلة، أي يقيمون الأفراح منذ ثلاثة أيام، استعدادا للعرس دون علمي، وكان يوم وصولي هو يوم الحناء.

وكما جرت العادة بلوبية وكل القرى المحيطة بها، يتم دفع المهر للعروس بعد أيام من الخطبة، وكان مهر زوجتي جميلة، أم سميح رحمها الله مئة وخمسين جنيها فلسطينيا، دفعتهم لعمي حسين بن أحمد اللبابيدي في مجلس العقد، أثناء كتب الكتاب، واشتروا جهازها من طبريا والناصرة وهو عبارة عن ملابس وذهب كالأساور والخواتم والجهاديات، والجهادية عبارة عن نصف ليرة ذهبية عيار 24قيراط، وكانت كذا جهادية تتجاوز العشرة تربط بجدايل العروس.

كان الشباب يقومون بالسحجة في أيام التعليلة، وغناؤهم كان في حب الوطن، مرددين أغنية: "سيف الدين حج أمين نصارى مع مسلمين احنا كلنا متحدين" إذ كان صيت الحاج أمين الحسيني منتشرا في شمال البلاد وجنوبها ولا سيما وقوفه بصلابة أمام بريطانيا وسماحها لليهود بالهجرة لفلسطين وسنتها كان الحاج أمين مطاردا من بريطانيا يتنقل بين ألمانيا والبوسنة والهرسك.

وخلال أيام التعليلة ذهبت بنات جيراننا بصحبة أخواتي لجمع الحطب، من أجل طبخ وليمة العرس، فقصدوا حارة الشهايبة وحارة الشناشرة وصرن يطلقن أغاني معينة يفهم من خلالها أهل الحي بأن هناك عرسا، وأهله يريدون حطبا.

كانت أختي فريجة رحمها الله تردد: "احنا جاينكو بدنا حطب وعقبال عنكو يا حبايب" ويتم الغناء بلحن ورتل جميل، وكن يقصدن كل حواري لوبية كحارة الحجاجوة والكفارنة والسملوت والعطوات، وكلما سمع أهل الحارة الغناء تخرج كبيرات الحي وتزغرد وتعطيهم الحطب، وجمع الحطب هذا مهم جدا حيث تقوم به الصبايا والصغار من أهل العريس.

أما يوم السبت 23/ 9/ 1944 كان يوم الحناء يوم وصولي من مقر عملي ففي المساء قامت أمي وإخواتي وقريباتي بتحضير الحنا وعجنها وتخميرها ثم وزعوها على المعازيم ثم حنَّ يدي وصرن يغنين:

مبارك مبارك حناك يازين
كما بارك محمد بليلة الإثنين
مبارك مبارك حناك يا عريس
كما بارك محمد بليلة الخميس
مبارك مبارك حناك يا الأسمر
كما بارك محمد بالزيت والزعتر
مبارك مبارك حناك يا غالي
كما بارك محمد بأغلى الليالي

أما العروس أيضا أهلها عملوا لها الحنا ونقشوها على يديها ورجليها، كانت النسوة تغني:

سبل عيونو ومد ايدوا ليحنولو،

ونسوة تقوم بالطبيخ لإطعام المعازيم القادمين من البلاد المجاورة ويقوم الرجال بنحر الذبائح من خرفان وثيران تحضر من الليل، وفي صباح العرس أي يوم الأحد كانت النسوة أيضا يطبخن الفقعية اي الشاكرية ويغنين:

صبوا القرا يلي معود على القرا
حول القرا يا بيّ العريس واقف
صبوا اللحم يلي متعود على اللحم
حول اللحم يا بيّ الولد واقف

وكان الحلاق قد أتى ومعه صاحبي فايز العموري، وأحمد الرشيد و أكثر ما فرحني قدوم خالي نمر وعائلته وابنته الصغيرة وداد من قرية ترعان، ومعهم خالي محمود.والذي استأذننا للذهاب لطبريا من أجل شراء الجريدة التي بها أسماء الناجحين بشهادة الماتريك التي تعادل البكالوريا أو الثانوية العامة أو التوجيهي حسب مسميات كل بلد.

وعاد خالي ليبشرنا بنجاحه وبتفوق، وكانت الفرحة فرحتين فرحة عرسي وفرحة نجاح خالي.

وبعد الحلاقة دخلت الحمام برفقة أصحابي من أبناء القرية، والنسوة يغنين وتتعالى زغاريدهن، ثم ألبسوني القنباز، والعباية والحطة والعقال.

وصدح صوت أمي:

هوى يا هوى لا تطير عباتو
نيال العريس غالي على خواتو
هوى يا هوى لا تطير بشكيرو
نيال العريس غالي على اشبينو
هوى يا هوى لا تطير محرمتو
نيال العريس غالي على عمتو
هوى يا هوى لا تطير لو كمو
نيال العريس غالي على امو

وكانت الزفة بانتظاري، ركبوني على الحصان، ومشى ورائي المعازيم من الشباب، وأخذوني إلى المدان، وهو عبارة عن ميدان في لوبية وهي أرض واسعة سهلية تقام بها المناسبات.

وأخذ الشباب يتبارون على طراد الخيل، وكل شاب يستعرض على فرسه و يقوم بالدبكة في الميدان الرجال فقط، أما النسوة فتقف تنتظر ريثما تنتهي مراسيم المدان،

ثم يمشون بالزفة وراء العريس ذاهبين إلى المنزل، ويجلسون العريس على المصفة، وهي عبارة عن فراش يصمد عليه العريس.

أما العروس، أي جميلة فكانت معزومة عند خالها صالح العموري من ليلة الحنا فقامت قريباتها بتزيينها ووضع الكحلة بعينيها ورشوا لها ريحة من طبريا، ولبسوها فستان مخمل احمر، وعصبة مزينة بالجهاديات غطوا بها شعرها.

وقبل أن يزفوها إلينا، كان هناك إجراء اسمه، الخلع، أي أن خال العروس ما يطلعها من بيته ولا يركبها الفرس إلا بعدما يقدم أهل العريس هدية لخال العروس، فقدم والدي إبراهيم رحمه الله، عباءة غالية الثمن لخال العروس الذي كان وجيه عائلة العموري، ركبت جميلة على الفرس، المزدانة بالذهب، وكانت النسوة تردد:

زينوا الفرس ولبسوا العروس عباتها
وزفوها بحارة خالاتها،
ولبسوا العريس عقالو
وزفوه بحارة عمامو.
رضا يا خيالة الرضا
والخيل تطلب عريضة
رضا يا خيالة الزرقا
الخيل جتكو من شرقا.

وكنت أنا سابقها على حصاني كما جرت العادة، وعندما وصلت العروس لبيتنا، أعطتها أمي عجينة مع عود حبق، ريحان، وطلبت منها أن تلصقها على باب بيتنا، وهي عادة مفادها أن العروس ستعمر وستلتصق بهذا المكان وتنجب أولادًا وبنات كثر.

وبعدها رفعتُ المنديل عن وجه جميلة وقامت أمي وأخواتي بتجليتها ومسكوها شمعتين، ورقصوها، وغنوا لها:

يا قمر علي نجومك
طلعت الحلوة تاتزورك

يا قمر علي ووطي
طلعت الحلوة تاتغطي
كل البلاد اعلموها
منشان العروس وأبوها
يا لمبارك يا لبنية
فردتو وغطى عليا
كل البلاد اعلموها
منشان الحلوة وأبوها
أول عبور بلدكم
طفل صغير ولدكم

وبعدها جلسنا وتعشينا والمعازيم وغنوا لنا:

مية هلا وسهلا بالضيوفي
والغدا علينا والعشا خاروفي
مية أهلا وسهلا بأهل البلد
والغدا علينا والعشا سمك
مية أهلا وسهلا فيكو يا الأحبابي
الغدا علينا والعشا كبابي[1]

ونقطونا وباركوا لنا، وانتهى العرس..... مع الغياب.

1- الشكر للسيدة رجيحة الزرعيني من قرية ترعان التي ساعدتني في تذكر هذه الأغاني التراتية الجميلة " هدى "

العائلة الصغيرة ورحلة إلى القدس 1946

بعدما وضعت زوجتي جميلة حسين اللبابيدي ابنتنا البكر سميحة1946 فرحت بها فرحا شديدا، وكنت كلما آتي في إجازتي العسكرية أهرع إليها وأحملها بين ذراعي وأقبلها وأحضر لها الهدايا من حيفا وطبريا وأنا راجع إلى لوبية، وفي إحدى المرات كان عمر سميحة شهرين، فاصطحبتها وأمها في رحلة إلى بيت المقدس، وزرنا المسجد الاقصى، والصخرة المشرفة، وصلينا هناك صلاة الظهر، وبقينا بالقدس حتَّى المغيب، وفي المساء اصطحبتهم إلى رام الله عند خالي نمر، حيث كان يعمل في مركز شرطة رام الله، ورحبوا بنا وفرحوا برؤية ابنتي سميحة، وتجولنا في رام الله ورأينا قصورها وفنادقها الأنيقة. كانت من أجمل مدن فلسطين وتعتبر مصيفا مهما، بهوائها العليل ونظافتها وترتيبها ونظام أبنيتها، وفي اليوم التالي في الصباح عدنا إلى القدس وركبنا من محطة المصرارة القريبة من باب الخليل، واتجهنا إلى بيت لحم وتجولنا بها، وفي طريق عودتنا إلى لوبية اصطحبتهم إلى بحيرة طبريا وجلسنا هناك وأكلنا السمك الطبراني المشوي، وسبحت في البحيرة، ثم عدنا إلى لوبية، ورجعت إلى عملي، وكنت وقتها مازلت متطوعا في سلك الشرطة في حيفا بمعسكر "دي آي دي" وبقيت فيه حتَّى قبيل نهاية الاحتلال الإنكليزي البغيض إذ سرحوني وخيرا ما فعلوه.

بعدها صرت كثير التنقل في أنحاء فلسطين، أبحث عن عمل أقتات منه فكرت في استخراج شهادة للسواقة فصرت أذهبُ يوميا إلى الناصرة، لأتعلم قيادة السيارة في شركة العفيفي لتعليم القيادة، وكان مدربي اسمه صبحي عروق من المجيدل، وبعدها عزمت على السفر إلى غزة ومنها اتجهت شرقا إلى بئر السبع وسألت عن حي المنشية قاصدا أبا شحدة الذي عشت معه ذكريات رحلتي التي كنت قاصدا بها مصر، وكان قد أعطاني عنوانه عندما افترقنا في عوجة حفير،

دلوني على بيته وقرعت الباب، لكن للأسف لم أجده أخبرني أهل بيته بأنه يعمل في يافا بحفر الآبار، تركت حي المنشية وعدت إلى بئر السبع وبت ليلتها في الفندق، وفي الصباح اتجهت إلى الخليل، ثم بيت لحم ثم رام الله وزرت خالي نمر بعدها ركبت بالحافلة المتجهة للقدس ثم طبريا وعدت إلى لوبية، وبعدها بدأت الحوادث بفلسطين في أواخر 1947 تطوعت في الجهاد المقدس، لمقاومة القوات المحتلة.

الخط الحديدي الحجازي وتفجير محطة حيفا 1946

الخط الحديدي الحجازي كان شريان العالم الإسلامي، كان ينطلق من دمشق إلى المدينة المنورة، وكان يمتد منه فرع ينفصل من مدينة درعا السورية، إلى مدينة حيفا بفلسطين، ويمر بوادي اليرموك، وكان هناك انفاق يمر منها، إلى سمخ ومنها إلى بيسان، ومنها إلى مرج ابن عامر، وبعدها إلى ضواحي حيفا، وكان له في حيفا محطة، سكة حديد الحجاز، وفي أوائل1946، كنت أنا شخصيا بالمحطة، وكنت أنوي السفر إلى مدينة عكا وفي أثناء انتظاري للقطار المتجه لعكا رأيت شخصين يدحرجان برميلا، وأدخلوه إلى المحطة، وكان معهم ضابط إنكليزي يقوم بحراستهما وضع الرجلان البرميل وانصرفا، احتار أمر الناس بهذا البرميل منهم من قال:ربما هذا البرميل سيرسل إلى ضواحي حيفا، إلى مستعمرة قريات حاييم وغيرها من الإشاعات.

فإذا بامرأة بدوية من الركاب، تنادي بأعلى صوتها:تعالوا اقرؤوا الورقة على البرميل!! فهرع الناس وقرأ واحد منهم بأعلى صوته عبارة تقول:البرميل فيه متفجرات وسينفجر بعد دقائق وهرب الناس وموظفو المحطة، بسرعة وأنا معهم وابتعدنا تقريبا كيلو متر عنها، وبعد ربع ساعة سمعنا دوي الانفجار الذي دمر

المحطة كليا، وكم أسفت على هدم هذا الصرح العظيم، الذي شيدته الدولة العثمانية على أرض فلسطين، وكان السلطان عبد الحميد قد أرسل نداء إلى كل العالم الاسلامي، فأتت الاموال من الهند، وتركيا ومن أثرياء بلاد الشام واستمر العمل ببنائه مدة عشر سنين، من دمشق إلى المدينة المنورة ومازالت محطته موجودة إلى الآن في دمشق، وسميت المنطقة باسمه منطقة الحجاز، وله بناء أنيق فيها، أما في المدينة المنورة، كانت محطة الحجاز تسمى بالعنبرية وقد شاهدتها؛ورأيت العربات ماتزال هناك تشهد على عصر ذهبي للمسلمين والعرب، وفعليا توقف الخط عام 1916 أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان يستخدم بالنقل داخل فلسطين فقط بين مدنها كحيفا وعكا وسمخ وقد نسفت الجسور التي كانت تربط سوريا بفلسطين، فانقطعت المواصلات قرب الحمة وعندما دمر لم يتم تجديده وبالخمسينيات تشكلت لجنة عربية، من السعودية والأردن وسوريا لإعادة تسيير الخط الحديدي الحجازي وقامت عدة لجان بالكشف على خطوطه لكنهم لم يصلوا لحلول سياسية، بإعادته وبقي معطلا على حاله ولغاية 1947بقي خط سوريا الأردن يعمل، ولم يصل وقتها إلى حدود السعودية بسبب تدهور الاوضاع العربية إلى أن بدأت حرب فلسطين 1948 توقف الخط عن العمل كليا بعد أن كان طريق الحج السهل لكل حجيج العالم الإسلامي ومركز انطلاقهم.

حيفا كما رأيتها قبل النكبة وبعدها

حيفا كانت قاعدة الشمال الفلسطيني، وبها أشهر ميناء على البحر الابيض المتوسط، وفيها معمل تكرير للبترول الخام القادم بخط أنبوب طويل من الموصل في العراق، مارا بالأراضي الأردنية والفلسطينية، وكان أشهر معمل

تكرير للنفط في الشرق الأوسط كله أظن كان اسمها قاعدة بترول الرفتيري وقد وقفت العراق ضخ البترول، أثناء حرب فلسطين 1948.

في حيفا مركز ديني للطائفة الأحمدية القاديانية بقرية الكبابر وفي سفح الجبل يوجد مقبرة للبهاء عباس، وهو ضريح حوله حديقة، وهو مزار للبهائيين بعد عكا.

أما أسواقها فكثيرة بها ساحة الحناتير تباع فيه الخيول ومستلزماتها، وساحة المسمكة لبيع السمك البحري الطازج، وكان بها سوق الشوام، وهو شبيه بسوق الحميدية، تباع فيه كل المنتجات السورية، وفي السوق أيضا يوجد مركز لتجارة الشوام يباع فيه الأخشاب والجوخ السوري، وأشهر معالم حيفا وادي روشيما، والشيخ عبد الله.

بعد الاحتلال الإنكليزي، غدت حيفا مدينة مشهورة وبلغ تعداد سكانها حوالي مليون نسمة، وجل سكانها كانوا وافدين من سوريا ولبنان، بالإضافة لهجرة عدد كبير من القرى المجاورة إليها.

ومن رجالات حيفا المشهورين، الوجيه مصطفى الحاج إبراهيم، والشيخ محمد نمر الخطيب الذي كان خطيب في جامع الاستقلال ، ومن رجالاتها أيضا سامي طه، رئيس نقابة العمال العرب والشيخ محمد المراد وابنه من بعده الذي غدا قاضي حيفا وقاضي دمشق بعد النكبة، حينما لجأ لسوريا ومن وجهائها أيضا فكتور خياط ابن عزيز الخياط، وعزيز كان مالكا كبيرا لبساتين بنى عليها عمارات، سكنها الأغنياء وسمي المكان، بشارع الملوك وكان فكتور قد ورث عن أبيه كل هذه الأملاك.وعين قنصلا لإحدى دول أمريكا الجنوبية.

أما عزيز الخياط فكان أغنى رجل في حيفا نشأ فقيرا وأسعفه الحظ في الثراء، وقد تحدث أهل حيفا أن عزيزا قد أوصى بعد مماته، بأن يخرجوا كلتا يديه

من نعشه؛حتى يعلم الناس أنه ولد فقير ومات فقيرًا. مع أنه كان مالكا لشارع الملوك، ولكن الملك بالآخر لله.

ومن رجالات حيفا المشهورين الحاج حسين حمادة، كان من خيار المجاهدين، وقد شارك بعدة معارك واعتقل عدة مرات من قبل الإنكليز، وتوفي في مخيم اليرموك بدمشق رحمه الله.

ومن رجالاتها أيضا المجاهد الفدائي سرور برهم "أبو محمود"، كان موكلا من قبل قيادته لجلب الذخيرة من سوريا ولبنان ولما عاد إلى عكا مع القافلة، التي تحمل الذخيرة، حذره أهلها بان لا تمر من هنا إذ يوجد مكمن من اليهود والأعداء متربصين لك، وكان معه المجاهد محمد الحنيطي من الأردن، فقال سرور سنمر رغم أنفهم، فتقدمت القافلة بعدة سيارات، ولما وصلوا قرب مستعمرة موتسكين، وجدوا الطريق مغلقا وعليه استحكامات شديدة وسرعان ما بدؤوا بإطلاق النار على القافلة، قاومهم الضابط الحنيطي واستشهد، وكان سرور برهم برفقته زوجته، فودعها ، وزحف على بطنه حاملا قنبلة وألقاها على الذخيرة المحملة بالسيارة فانفجرت بالأعداء، واستشهد ابو محمود أمام عيني زوجته.وكان قد أوصاها أن تعود لعكا.

كانت حيفا مركز الحركة الوطنية لفلسطين كلها، من أيام الانكليز، وفيها جمعيات وطنية مثل جمعية النجادة، وجمعية الفتوة.وكانت تعمل للجهاد، لكن الأعداء الإنكليز غدروا بأهل حيفا، وعند قرب سقوط حيفا، منع الإنكليز النجدات العربية من الدخول لها.

وكانت القرى المجاورة متل الطنطورة والطيرة وجبع وعين غزال فيها المئات من المجاهدين، فمنعهم الإنكليز من دخول حيفا.وعندما اشتدت المعارك ضحى أهل حيفا بالغالي والنفيس، وكان الإنكليز يتمنون سقوط حيفا بيد اليهود بحجة أن بها مراكزهم.

خرج أهل حيفا مشردين الى عكا وإلى الناصرة وإلى الدول المجاورة لاجئين مشردين.

وبقي فيها مئات من العائلات يسكنون وادي النسناس.

بداية التحاقي بالمجاهدين 1948:

في بداية حرب فلسطين 1984، تطوعت مع قوات الجهاد المقدس، كان يرأسنا أبو إبراهيم الصغير، ويساعده أبو عاطف محمود الصالح، ويرأس القوة الضابط محمود العورتاني، وهو ضابط متدرب خريج الكلية الحربية في عمان.

انتسبت لهذه المجموعة في شهر شباط 1948، وكان مركز تلك القوة في كفر كنا، وبعدها نقلت الى الناصرة، بمنطقة دير النمساوي الذي يقع في الطرف الشرقي من الناصرة، كان معنا من لوبية حوالي عشرين شخصا أذكر منهم، محمد مصطفى العبد، وخليل حجو وخليل العاصي، وغيرهم كان أهل لوبية تقريبا ربع القوة.

وأذكر أنني لما كنت مغادرا لوبية للالتحاق مع رفاقي بالمعركة إذ بأخي الصغير أحمد يحمل ابنتي سميحة وكان عمرها سنتين ويقول لي: "ودع ابنتك ربما لن تراها ثانية"، لكنني تماسكت ومنعت دمعتي من النزول، وكان حبي لفلسطين أقوى من أي عاطفة، وما كان مني إلا أن قبلت ابنتي وودعتها.

كانت بداية معاركي في منطقة الجليل، هي معركة عرب صبيح أذكر أن ذلك كان في أول شهر شباط / فبراير 1948، أي قبل سقوط لوبية بحوالي ستة أشهر، جاء خبر بأن العصابات اليهودية، هاجمت عشيرة علي النمر من الصبيح، فتحركت مع قوة فيها خمسون جنديا بباصين، ووصلنا لعين ماهل، فأشار علينا المسؤول أن يترجل منا فصيل فيه سبعة أفراد قرب العدو.

نزلت أنا وشاب متطوع سوري من دير الزور اسمه بدر مصطفى، وخمسة آخرون نحمل الرشاش، واستطعنا أن نقاوم ونخرج الأعداء من جحورهم ففروا شرقا إلى مستعمراتهم شمال جبل طابور، في عرب الصبيح بعد أن أذقناهم قوة بأسنا، فلحقنا بهم وهناك استحكموا وراء المتاريس مع قوة لهم كانت هناك قرب مستعمرة لهم، واستمرت مجموعتنا في مواجهتهم واستطعنا التقدم قرب المستعمرة، وكان بيننا وبينهم واد عميق، وفي تلك الأثناء أتت قوات مساندة لنا من الناصرة، يرأسها القائد أبو عاطف، وكانت بنادقنا متكئة على الصخور ومشرعة نحو الأعداء، ومازلت أذكر كيف أن أبا عاطف كان يملك أعصابا قوية وروحا مرحة، إذ كان يغني وهو يطلق الرصاص من بندقيته صوب العدو:

يا جارحة قلبي بقزازة

لماذا الظلم ده لماذا؟. وهي أغنية لمحمد عبد الوهاب كانت مشهورة يومئذ.

فجأة طلبت منه أن يختفي بسرعة لأنني لمحت فردا من العدو يصوب بندقيته ناحيته، فسلمه الله وسلمنا وبقينا ساعات في مناوشات مع اليهود وقبل غروب الشمس وبعدما جمعنا ما تبقى من ذخيرة عدنا الى الناصرة ننتظر الأوامر للانتقال إلى جبهة أخرى.، واستشهد معنا يومها شاب من ترعان، هو محمود العدوي.

معركة طبريا 19/ 4/1948

جاءت الأخبار للقيادة في الناصرة، أن أهل طبريا يلقون الويلات والظلم من اليهود، بالرغم من وجود كثير من اليهود في طبريا يعيشون مع العرب كجيران، وهم يطلبون نجدة، فتحركت قوة يرأسها أبو إبراهيم الصغير وأبو عاطف، وجاءت حشود من القرى المجاورة، وبعد المداولة رأوا انه لا داعي للحشود

الكبيرة، فتقرر إرسال خمسين عنصرا إلى طبريا، وقادنا يومها الملازم محمد العورتاني، ورافقنا شاب من بدو طبريا، يعرف مسالك الطريق.

تقدمنا نحو السهل ثم وصلنا لمستعمرة عين كشب وحطين الجديدة، وسار بنا الدليل حتى هبطنا إلى الطريق العام الواصل بين طبريا وصفد، وصعدنا تلالا عديدة وسلكنا طريق عزت بايك، وهناك قرر الملازم العورتاني تقسيمنا إلى مجموعات، كنت ضمن خمس وعشرين مقاتلا ذهبنا إلى شمال طبريا عند عزت بايك، وهبط الآخرون إلى المدينة، ورابطوا داخل البلد قرب ديوان آل الطبري، وجرت مناوشات، وبقينا أسبوعا بين أخذ ورد.

وكان الإنكليز ما يزالون في طبريا، لهم معسكر قرب مركز شرطة طبريا، وكانوا يتجولون بيننا في النهار، وينقلون أخبارنا للأعداء، وفي ليلة الجمعة أطلق الأعداء الرصاص نحونا، وكان هدفهم أن يفصلونا عن دائرة الشرطة وأوتيل كروسمان، وبقي الطريق المتجه شرقا مفتوحا، وبعد إطلاق النار والصواريخ، انسحب المرابطون، وأتوا إلينا قرب دار نعنعة، وقالوا إن اليهود استولوا على أوتيل كروسمان، وفصلوا البلد عن بعضها البعض، فانسحبنا مضطرين، وكان أحدهم اسمه أبو ماجد معه رشاش برنغل، قد تركه وانسحب، شمالا الى طريق المجدل مع ورفاقه ثم اتجهوا غربا الى لوبية.

انسحب الكثيرون خلال ساعتين، ثم وجدت نفسي وحيدا، فحملت الرشاش الذي تركه أبو ماجد على كتفي، وجعبتين مملوءتين بالذخيرة، وهبطت إلى الطريق العام مخاطرا، وتسلقت الجبال واجتزت الوديان وكنت مجهدا وفي خطر كبير، وأنا أحمل كل هذه الذخائر على كتفي، لكن الله سلمني، والحمد لله.ووصلت للوبية سالما غانما وبعد أن ارتحت قليلا قلت لأخي أحمد: خذ هذا الرشاش وأوصله لمصطفى العبد.

بقيت طبريا تقاوم حتى أن الإنكليز عملوا هدنة وأخرجوا أهاليها منها، فقسم منهم اتجه غربا الى الناصرة، وقسم جنوبا نحو سمخ والأردن.

وهكذا أفرغت طبريا من العرب، نتيجة تواطؤ الإنكليز مع اليهود، وكان سقوط طبريا كارثة كبيرة ففتحت الطريق ومهدته للأعداء، لأنها كانت حاجز بين المنطقة الشمالية والمنطقة الجنوبية.

أخيرًا انتقلنا نجاهد من الناصرة الى مركز شرطة الناصرة، وبقينا فيها حوالي شهرين، ثم انتقلنا الى بناء في جبل الناصرة، وكانت بناية اسمها الألمانية وهي للبعثة الألمانية التعليمية، وجرت معارك شهيرة، ولكنها فشلت جميعها لم نكن نمتلك السلاح الكافي لا عدة ولا عتاد، ولا التزام بأوامر القادة.

سقوط صفد 12 / 5/ 1948

أتانا أمر من القيادة أن نسرع إلى صفد، وكنا يومها نرابط في الناصرة وتلبيةً للنداء ركبنا حافلتين كبيرتين لأشخاص من الناصرة أقلونا إلى صفد وكان ذلك يوم الاثنين 12 / أيار وكان يوماً ماطراً مكفهرّ الجو.

كثرت الإشاعات والأخبار التي مفادها أن المجاهدين استولوا على ثلاثة أرباع مدينة صفد، ويريدون مساعدة ومددًا من عندنا، وأن أمين الحسيني قادم من لبنان إلى صفد، وأنه سيعلنها حكومة فلسطينية، وأن المجاهدين في صفد يحاصرون الحي اليهودي الذي بدأ يستغيث.

فلما وصلناها صباحا فوجئنا أن الأمر كان عكسيا وجدنا صفد قد سقطت، وسألنا كيف حصل هذا قالوا: الحامية العربية انسحبت فجأة، وتركت أهل صفد يواجهون اليهود وحدهم، ويا لهول ما رأيت: نساء صفد حافيات حاسرات الرأس نائحات، باكيات يركضن في الشوارع وأطفالهن يصرخون جزعا وخوفا!

خرجن مع أطفالهن بعد أن تيقن أن اليهود لو دخلوا لفعلوا بأهلها المجازر كما فعلوا في القرى الفلسطينية هنا وهناك.

بعد الوقوف على الواقع علمنا أن هناك أي في صفد سلطات ثلاث: كان فيها الجيش الأردني يقوده رجل اسمه "أميل جميعان" وآخر اسمه "ساري فنيش" وقد تسلما القيادة من الضابط السوري إحسان كم الماز الذي كان محبوبا من أهالي صفد، وأول ما قام به فنيش جمع السلاح من المجاهدين بحجة توحيد السلاح! ولكنه فتح الطريق لليهود وهرب.

وكان هناك مجاهدون يقودهم رجل وطني اسمه "صبحي الخضرا" وهو رجل من فلسطين كان سكرتير الملك فيصل في باريس، وأيضا هناك قوات اسمها قوات اليرموك يقودها السوري أديب الشيشكلي الذي أصبح بعد ذلك رئيساً للجمهورية السورية.

وفجأة رأيت عدداً من سيارات الجيب كانت مسرعة قادمة نحو صفد ووقفتْ في المكان الذي كنت فيه ولما كثر سؤال الناس عن الأمر قالوا: هذا أديب الشيشكلي.. خرج الشيشكلي من الجيب وسأل عن الأمر فقيل له سقطت صفد.. وضع يديه على رأسه وأطرق وبكى وحينها أقبل الناس عليه يصيحون في وجهه ويقولون "أنتو خون.. انتو بعتو بلادنا.. الخ"

و لما رأينا غضب الناس وازدياد أعدادهم خشينا عليه وأمرناه أن يرجع من حيث أتى إلى لبنان وإلا قتلته الجماهير الغاضبة فاستجاب للاقتراح وولى مع سياراته شطر الحدود اللبنانية .

وبعد حوالي ساعة عدنا بسياراتنا إلى الناصرة، وهناك فوجئنا بأن نساء الناصرة استقبلننا بالزغاريد ظنّاً منهنّ أننا قمنا بطرد اليهود من صفد، فقلنا للناس الحقيقة: لقد سقطت صفد فقد كان الخبر كالصاعقة عليهم.

وبعد ساعة من وجودنا بالناصرة واذ بعشرات من الأهالي قدموا إليها سألناهم: من أين أتيتم؟ قالوا: من بيسان، قلنا لهم: لماذا خرجتم، قالوا إن اليهود قالوا لنا اخرجوا مؤقتا، وقالوا سيكون هناك معارك شديدة اذهبوا الى الغرب للناصرة أو إلى الأردن حتى تسلموا، وبعدها ارجعوا عندما تهدأ الأوضاع!!

معركة لوبية الأولى سنة 1948م

في بداية نشوب المناكفات بين العرب واليهود، كان لليهود دوريات تخرج من مستعمرة الشجرة، وتدور بالطرقات من مسكنة إلى طبريا، مرورا بلوبية وهم فرقة الهاغاناه وكانوا يعملون تحت إمرة بريطانيا ويمارسون عملهم بعد قرار التقسيم، لكنهم لم يكونوا يؤذون أحدا، لكن مرورهم اليومي هذا كان يستفز شباب أهل لوبية وخاصة عائلة العطوات.فاتفق شباب حي العطوات على وضع حد لهذه الدوريات المستفزة؛ لكن العقلاء من كبار لوبية أمثال، فواز العلي، وحسن أبو دهيس، خالفوا رأي الشباب. فقالوا:اتركوهم طالما أنَّهم لا يؤذوننا ولا يتعرضوا لنا.

إلا أن الشباب لم يسمعوا الكلام وقرروا وضع حد لدوريات الهاغاناة، فذهب شباب العطوات وكان عددهم أكثر من خمسين شابا ومعهم عدد من حارة العجاينة والشناشرة والشهايبة وكانوا مسلحين ببنادقهم المتواضعة وتصدروا للهاجانة عند الحاجز تحت لوبية.

وحصل صدام كبير مع اليهود واستشهد في هذه المعركة اثنان من أهل لوبية، هما الشهيد إبراهيم المنصور، والشهيد دواس السملوتي وأصيب من المهاجمين ثلاثة من حي العطوات.

وعندما اشتدت المعركة وفشلت الهاغاناة بالسيطرة عليها، جاء الإنكليز من طبريا على دباباتهم، وفصلوا بين الطرفين، وانتهت المعركة.ومنذ ذلك اليوم حذر

اليهود من المرور عبر لوبية، وبقيت الأمور في توتر مع الهاغاناة، وأغلق الإنكليز، طريق لوبية المؤدي إلى المستعمرات الغربية، وبقي الحال على ما هو عليه إلى أن دخلت قوات جيش الانقاذ العربية إلى منطقة الجليل الشرقي، في قرى لوبية والشجرة وكفركنا وترعان والرينة والمشهد وكانت قوات الإنقاذ هزيلة غير متماسكة وسمعت بهذه المعركة ولم أشهدها لأنني كنت في جبهة أخرى.

معركة لوبية الكبرى 16 / 7 / 1948

حاول اليهود الصهاينة فتح طريق، الشجرة، مسكنة، لوبية. وهاجموا لوبية في 5أيار1948 بقوات كبيرة ودبابات و، استمرت المعركة أكثر من عشرين ساعة، وهب أهل القرى المجاورة لمساعدة أهل لوبية، من البعينة وترعان وحطين وعيلبون وأرسلت صفورية تعزيزات، وكفركنا أرسلت قواتا مسلحة، وحمى وطيس المعركة واشتدت، وكان المقاتلون يحاربون ببسالة لامثيل لها، استشهد من لوبية أكثر من خمسة وعشرين شهيدا، أذكر منهم: الشهيد شحادة الشهابي، وعلي الشهابي، وثلاثة أولاد لمحمد المفضي الشهابي، قدم الشهايبة تقريبا عشرين شهيدًا، استشهد أيضا أحمد العنيش من لوبية.

واستشهد الحاج رشيد سليمان وكان من وجهاء البعينة، واستشهد من حطين الشاعر أبو شكيب الحطيني .

كنت مشتركا في تلك المعركة وأصبت بجروح في فخذي بطلق ناري، في منطقة استحكام الشناشرة جنوب لوبية، وأسعفت في مضافة الحجاجوة.وكانت جروحي سطحية، وأوصلوني إلى البيت على ظهر الدابة، وعدت في المساء إلى القتال في ساحة المعركة، وجاءتنا من صفورية تعزيزات كبيرة مسلحة، بإمدادات لابأس بها، وكانت قوات اليهود متحصنة بدار حسن العبد في لوبية، وبقوا فيها

إلى فجر ثاني يوم من المعركة، وقد خسر اليهود في هذا السجال العشرات من القتلى والمئات من الجرحى وقد غنم أهل لوبية عشرات البنادق، والحقيقة أن معركة لوبية كانت أشهر معركة جرت في الجليل، وقد تناولها كثير من المؤرخين الإسرائيليين، في كتاباتهم قالوا عنها بأنَّها بؤرة الصراع حول طبريا، ووصفوها وتحدثوا عن نتائجها وعاد اليهود لمهاجمتها وحصارها حتى تم إجلاء أهلها في تموز من عام 1948 كما أن الطيران اليهودي اشترك في قصف لوبية عدة مرات.

استشهاد خالي نمر في معركة الشجرة 1948

وعندما جرت معركة الشجرة، واشتد وطيسها، حمل خالي نمر سلاحه وذهب مسرعا إلى جبهة القتال، بصحبة أولاد الزرعيني، وشباب من عيلة الحنيف وقاتل الجميع قتالا ضاريا ، واستشهد خالي في المعركة سنة 1948وحمل على الأيادي بزفة لم يشهد لها مثيل، في عرس الشهادة، من الشجرة إلى ترعان، وبكته الرجال قبل النساء، كيف لا وقد ورث كل صفات الجود والكرم والشهامة من أبيه جدي قاسم.

وكان أهل ترعان قد أرسلوا لأمي حصانا لينقلها من لوبية إلى ترعان، لتودع أخاها وتشهد تشييعه.

لكن الحصان وفارسه تأخرا في ذاك اليوم، لان أهل لوبية استخدموا الحصان القادم لنقل أمي في حمل السلاح إلى قرية الشجرة، وصل الحصان متأخرًا، وركبت أمي قاصدة بيت أخيها.

وكان قد دفن، وحزنت عليه حزنا شديدا، وكنت وقتها في مشفى الناصرة العسكري، بسبب إصابتي، وسمعت بنبأ استشهاده، وزادني ذلك شجاعة وإصرارا على قتال الأعداء .

دفن خالي في المقبرة القريبة من بيته، ويرقد بجانبه أبوه قاسم، وأخوه محمود.رحمهم الله جميعا، وبقيت أمي ترتدي السواد حزنا على أخيها لمدة عشرة أعوام، وخلعته حينما ذهبت للحج سنة 1958م.

الفوضى في صفوف المتطوعين العرب 1948

في أثناء تطوعي بالجهاد المقدس بقيادة المناضل أبو إبراهيم الصغير، كنا نعسكر قرب الناصرة بدير النمساوي، وكنا عبارة عن قوة دفاعية، هاجم الأعداء عرب الصبيح فذهبنا لنجدتهم، وبعد معارك شديدة أخرجنا اليهود من عندهم.وسقط منا شهداء كثر، ومن اليهود عشرات القتلى، وكان معنا في المعركة البطل القائد محمود الصالح (أبوعاطف)، الذي استشهد في معركة الشجرة؛رحمه الله وطيب ثراه.

وفي خاطري ذكريات ومواقف لاتنسى، قبل معركة الصبيح كان معنا رجلا متطوعا من ألمانيا اسمه (ماكس الالماني) وكان خبيرا بالمتفجرات، وطلب من القيادة الذهاب إلى أطراف مرج ابن عامر برفقة حظيرة متميزة (مجموعة تتكون من خيرة الجنود) وكنت أنا عريف هذه المجموعة، فذهبنا شرقا من الناصرة حتَّى أشرفنا على جبل طابور قرب قرية عين ماهل، فقال لنا ماكس الألماني:أريد عنصرين للذهاب معي لأداء مهمة في مرج ابن عامر، حول المستعمرات اليهودية، وستبقى يا محمود مع ستة جنود في هذا المكان ولا تتركوه حتَّى نعود، أو نرسل إليك خبرا.

ذهب ماكس مع جنديين لأداء مهمتهم الاستطلاعية، وبقيت أنا مع أفرادي في مكاننا لمدة أربع ساعات، وانتاب الأفراد الستة الملل، تمرد أربعة منهم وفروا، وبقيت أنا مع جنديين، وإذ بماكس الألماني يعود سائلا: محمود " ?where are your friends" أين أصدقاؤك؟

قلت له: تمردوا وفروا!

فأجابني: " that's wrong" أي هذا خطأ، كان المفروض أن ينفذوا الأوامر وحين امتناعهم تطلق عليهم النار؛ أنت قائد فاشل محمود!؛ فمن يومها عرفت الفارق بيننا وبين أعدائنا

كنت أراقب الجيش الاسرائيلي بواسطة المنظار، كانوا في غاية النظام يمتثلون لأوامر قادتهم ولا يشذ منهم فرد ولا يتمرد على رئيسه ولو بقيت المعركة أشهرا؛ على حين أنَّ أفراد مجموعتي تمردوا واستشعروا الملل في ساعات قليلة.

وبعدها تحركنا إلى مستعمرة العفولة، وكان اليهود يتقدمون بمدرعاتهم، وهرعت لملاقاتهم وكان معي مجموعة كبيرة من المجاهدين، وكانت الأوامر ألا نطلق النار اذا كانت المدرعات بعيدة، وللأسف أكثر جنودنا لم يمتثلوا لتلك التوجيهات، فكانوا يطلقون النار عشوائيا مما أدى لنفاذ أكثر الذخيرة في الهواء، كان معي سليم محمد الدبوري يحمل رشاشا من نوع برينغل، وسألته كم بقي معك من الذخيرة فقال 15طلقة فقط، صرخت عليه قائلا: لماذا ضيعتم الرصاص في الهواء، وحصلت بيننا مشادة وقلل أدبه علي وقال بسخرية: " ليكون مفتكر أن الرصاص من بيت أبوك يا زلمة "، وهكذا كان حالنا: لا انضباط ولا سماع لأوامر القادة، وهذا هو سبب فشلنا مع قلة الذخيرة.

الخداع اليهودي:

عند سقوط صفد سقط معها ثمانون قرية، مثل الجاعونة عين الزتون، كفر برعم الخالصة، عيثرون، قديفة، .... سقطت أغلبها بالخديعة كان يأتي اليهود إلى سكانها ويكلمونهم: يا جيراننا نحن خائفون عليكم، اخرجوا أسلم لكم، وسترجعون بعد أيام.

وفي قضاء بيسان حدث الشيء نفسه فاليهود أجبروا الفلسطينيين هناك بالخروج بحجة الخوف عليهم وتكرر ذلك في أماكن عديدة لا سيما في المدن التي كان اليهود فيها جيران للعرب.

وهكذا تم لهم ما أرادوا، أخذوا البلاد بشتى الوسائل مرة بالخديعة ومرة بالتغلب لأن أسلحتهم أقوى وأشد، ومرة بالتخاذل العربي، ومرة بترويع الناس بالمجازر التي خُطط لها هنا وهناك؛ حتى يفزع الناس ويهربوا حفاظا على سلامة الأرواح، ومرة بقصف القرى بالطائرات كما قصفوا لوبية وصفورية وغيرهما، والأهم من ذلك كله سقطت لعدم وجود القوة والسلاح مقابل ما يملكه العدو.

بلادنا غنية وموقعها ممتاز فيها مئات القرى النشطة والغنية بالزراعة والرعي، فكان اليهود يطمعون بها، وبالإضافة إلى ضعفنا بالمقابل كان اليهود يخططون منذ زمن للاستلاء على البلاد، أذكر عندما كنت شرطيا في معسكر "الدي آي دي" بحيفا في مركز توزيع المؤن، كان بجانب المعسكر مقهى متواضع يملكه يهودي اسمه روبرت ويديره مع زوجته، كنت أتردد عليه وأشرب عندهم الشاي، ويقولون لي: نحن نحبك يا مهمود لو حصلت هرب لا تذهب خارج البلاد! وكنت استغرب كلامهم هذا وكنت على نيتي الطيبة أقول لهم: نحن سنحميكم، يضحكون ويقولون لي: ممن ستحمينا؟ ، وكان أيضا بمقهى آخر شاب يهودي اسمه هانز، يدير المقهى ويخدم الزبائن قال لي: أنا خريج البحرية الأوربية من شمال أوربا، وقال لي يوما: عندما تقوم دولتنا سأكون قائد باخرة في البحرية الإسرائيلية فرددت عليه: "they are dreams" إنها أحلام فرد علي: "we will see" "سنرى" وبحماسة الشباب كنت أقول له: سنطرد الإنكليز فيضحك قائلا من سيطردهم: لبنان الضعيفة؟ أم مصر المتعبة، أم الأردن الفقيرة!! كانوا

يعرفون نقاط ضعفنا، كانوا يعلمون مسبقا بانهم سيبنون دولتهم على أنقاض بلادنا فلسطين ونحن كنا من طيبة قلوبنا نشفق عليهم.

معركة معلول 1948 وإصابتي

بعد خروجنا من صفد وزعتنا القيادة إلى أماكن شتى فكان نصيبي في قرية معلول غرب الناصرة قرب قرية المجيدل، وكان معي ثلاثون جنديا أكثرهم كانوا من عشيرة عرب صبيح البدوية، وأنا رئيسهم، وفي الصباح وزعتهم أربعة جنود بالوادي، وثلاثة جنود بالجبل، وخمسة جنود بالشارع، والبقية معي، ولكنهم رفضوا تنفيذ الأوامر، وقلت لهم:هذا أمر عسكري ويجب عليكم تنفيذه، وحاولت أنا والضابط يوسف مفلح "هو من جبل نابلس" إقناعهم بالبقاء ولم يمتثلوا لأوامرنا، وأعلنوا انسحابهم وخرجوا من قرية معلول، ومشيت وراءهم ومعي رشاشي وهددتهم بإطلاق النار لو لم يرجعوا؛وإذ بالقائد أبو عاطف قادما فأعادهم إلى جبهة القتال، واعتذروا مني وكنت وقتها برتبة عريف، وعاد كل منا إلى تنفيذ مهمته، وكانت مهمتي العسكرية مراقبة اليهود من خلال تلال معلول.

وفجأة سمعت قائدي أبا عاطف يصرخ بأعلى صوته انحرف يا عريف محمود، وما إن كدت أسمع تحذيره، وبسرعة البرق استقرت رصاصات الأعداء في فخذي، وكانت إصابتي بالغة وجروحي عميقة، أجروا لي إسعافا بسيطا، لكن النزيف استمر، فقدم شاب اسمه، شريف جبر وهو من سكان معلول وأصله من المجيدل وابن مختار معلول، وحملني على ظهره من معلول إلى المجيدل مسافة ثلاثة كيلو مترات، وساعده في الحمل بعض المتطوعين الأندنوسيين كانوا يقاتلون معنا، وبعدها نقلت إلى الناصرة، ودخلت مشفى الناصرة الإنكليزي.

وقابلني طبيب جراح إنكليزي ، كانت مهمته إسعافي:فوجئت به قائلا:هل عرفتني يا Mahmud أنا أجريت لك عملية فصل أصابعك هنا في هذا المشفى سنة 1934؛ كان اسم الطبيب. Bath Keet أخرج لي الرصاص وبقايا شظايا، وبقيت في المشفى يومين، وعلمت وقتها باستشهاد الشاعر عبد الرحيم محمود، في معركة الشجرة 1948وجاءت أمي تسأل عني في المشفى وأخبرتني باستشهاد خالي نمر قاسم العيساوي في معركة الشجرة أيضا 1948 وحزنت حزنا شديدا لفقدان الخال الغالي.

خلال وجودي بمعلول شاهدت يوم 17 أيار طائرتين تضربان مطار نهلان، ثم ضربتا مطارا إنكليزيا ربما بالخطأ فرد عليهم الإنكليز على الفور وأسقطوا الطيارتين، وكانتا طائرتين مصريتين، وسقطت إحداهما بقرية المجيدل، وهرعنا نركض نحوها، فوجدنا قائد الطائرة قد استشهد وبقايا سلاحه حوله، فأخذناه ودفناه في الناصرة.

نقل الجرحى إلى لبنان ودمشق 1948

قررت إدارة مشفى الناصرة الإنكليزي، نقل الجرحى إلى لبنان وركبت أنا وعدد من الجرحى، وكانت أمي معنا وعندما وصلنا إلى مسكنة، ودعت أمي وأنزلتها قرب لوبية، واتجهتُ إلى لبنان، دخلنا مدينة صور ونزلنا في خيم قريبة من البحر، وكنا ثلاثين جريحا ثم نقلونا إلى بيروت ودخلنا مشفى جوفر الواقع في رأس بيروت، وبقيت به عشرة أيام، ثم طلبت من إدارة المشفى الذهاب إلى سوريا، فوافقوا وأرسلوني إلى مشفى دار النقاهة بالمزة، وهناك وبعد عدة أيام زارتنا لجنة من الهلال الأحمر السوري، وأهدوني علبة سجائر وقطعة حلويات من نوع المعمول، لم أستطع أكلها كيف وأهلي لا أعرف مصيرهم؛ فتركتها مكانها.

استأذنت من الطبيب وخرجت من المشفى، وبعت علبة السجائر بستين قرشا؛لأنني لست بمدخن، واشتريت جريدة بخمسة قروش، كنت أتوق شوقا لقراءتها، لأعرف ما حل ببلادي الحبيبة، كانت الأخبار لا تسر: علمت منها انسحاب جيش الانقاذ وسقوط معظم مدن وقرى فلسطين، وهزيمة حلت بالفلسطينيين والعرب.

انتابني شعور بالإحباط والحزن والقهر معا، وأخذت أفكر بمصير أمي وأبي وزوجتي الحامل وطفلتي الصغيرة، ركبت بباص متجه إلى المرجة، ثم مشيت إلى أن وصلت لسوق الحميدية، ولأول مرة كنت أراه؛ وتجولت بالحواري الملاصقة للسوق، ودخلت المسجد الأموي العريق وشاهدت المعالم التاريخية حوله فتذكرت القدس والأقصى والأمويين.

ثم عدت لمشفى دار النقاهة بالمزة، وعندما رآني الطبيب قال: بإمكانك أن تغادر المشفى، وأعطاني إجازة لمدة شهر، وطلب مني العودة للاطمئنان على جروحي.

تركت المشفى واتجهت بالباص إلى منطقة الحلبوني، قاصدا مقر الهيئة العربية العليا لفلسطين، وأعطيتهم تقريرا عن حالتي، وصرفوا لي خمسين ليرة سورية، بموافقة القائد رفيق التميمي مسؤول الهيئة العربية في الحلبوني آنذاك.

خرجت من الهيئة، وتجولت بأزقة الحلبوني أبحث عن صديق شامي قديم، كنت أعرفه من أيام العمل في الجيش بحيفا، وكنت ألتقيه بمسابحها، كان قد ذكر لي مرة بأنه يقيم في منطقة الحلبوني القريبة من محطة الحجاز؛ وبعد جهد كبير وجدته، وفرح جدا بلقائي، وحزن على مصاب فلسطين؛ وخفف عني بكلماته المواسية كثيرا من الهموم الثقيلة، وأخذني إلى سينما دمشق بوسط العاصمة، وشاهدنا فيلما عن حرب فلسطين، ثم ودعته واتجهت إلى الحميدية ونمت بفندق هناك، كانت أجرته ليرتين سوريتين على أمل أن أبدأ من الغد برحلة البحث عن أهلي في لبنان.

في دمشق

من دمشق إلى لبنان 1948

في الصباح تركت الشام وركبت سيارة تاكسي، متجهة إلى بيروت، وكان مركز انطلاقها من منطقة البرامكة، وصلت بيروت، ثم اتجهت إلى صيدا وبعدها عرجت إلى صور، وأخيرًا وصلت إلى بنت جبيل، وهي أقرب منطقة لفلسطين، تابعت سيري وتوغلت بالداخل الفلسطيني؛ وقصدت منطقة الجليل أبحث عن قريتي لوبية وقبل أن أصلها قيل لي لم يبق منها أحد كلهم هاجروا باتجاه لبنان.

سألت عن فرقتي؟ وأخبروني بأنَّهم في قرية سحماتا، قرب ترشيحا توجهت إليها مترجلا، فقابلني محمد علي العورتاني " أبو عمر "، وكان قائدا في الجبهة؛ وأخبرني بأن وضعهم صعب جدا، ولم يبق في سحماتا إلا ثلاثون مجاهدا، وبقيت معهم عدة أيام وكان الوضع صعبا، شح في المأكل والمشرب، ولا مكان للمبيت، كنا ننام على مقاعد، لأن هذا المكان كان مدرسة، وفي صباح ذات يوم لمحت امرأة قادمة من بعيد وكأنها أمي، فهرعت نحوها فإذا هي أمي استغربت كثيرا عانقتها وسألتها:

" يما شو يلي جابك لهون "؛قالت: "بدور على ولاد أخوي نمر" ، وكانت متجهة من الجليل الأعلى إلى داخل فلسطين، وبإحساسها عرفتْ أني في جبهتي، فأحبت أن تطمئن عليَّ، سألتها عن مكان لجوئهم فقالت سمعت أنهم في بنت جبيل وسألحق بهم بعد أن أجد أولاد أخي .

ودعتها وأنا وهي في حالة يرثى لها، وتابعت مسيرها نحو ترعان، وبقيت مع من تبقى من كتيبتي، ومن المصادفة أنني في اليوم التالي رأيت خالي محمود فطمأنني بوصول أمي ولقائها بأولاد أخيها نمر، فسألته عن جهته فقال إنه ذاهب

للسفارة البريطانية من أجل معاملة تعويض وتقاعد أخيه المرحوم الشهيد نمر وهذه آخر مرة أقابل بها خالي محمود.

بعد أن رأيت ما يدمي القلوب استأذنت من القائد أبي عمر بالبحث عن أهلي فوافق على الفور وقال بأسى: سقطت البلاد وضاعت العباد!!

تركت سحماتا واتجهت شمالا، وصلت الحدود الفلسطينية اللبنانية وقفت مودعا بلادنا المقدسة أرض الآباء والأجداد، ملاعب الطفولة ومرابع سني الشباب، والدموع في مقلتي والجروح تملأ القلب، وصلت لبنت جبيل، المشهد كئيب، عائلات منتشرة هنا وهناك بعضها تحت الأشجار، وبعضها بين الحارات، شح في الطعام والشراب، أطفال يبكون وعجائز يتضرعون، ورجال حائرون، وصرت أسأل عن أهلي، عن زوجتي، عن أبي، عن أمي إن كانت قد رجعت أم بقيت في قريتها ترعان مع أهلها الذين لم يخرجوا ولكن دون جدوى، وبعد ساعات لمحت قريبي محمد الخروب أبوعلي، ففرحت بلقائه كثيرا وسألته عن أهلي فقال لي:إنَّهم خرجوا من لوبية، وممكن أن يكونوا في مخيم عنجر، أو مخيم بعلبك.

من لبنان لدمشق 1948

اتجهت لمحطة بنت جبيل و ركبت باصا متجها إلى بيروت ومنها ركبت باصا متجها إلى زحلة، وكان معنا بالباص امرأة بدوية، فأخذ شباب لبنانيون يضحكون ويستهزؤون بها، فتدخلت وقلت لهم هذا التصرف معيب وتخانقت معهم، فلم أر منهم إلا الطيش واللامبالاة وقلة الذوق، فكرهت لبنان من تصرفات هؤلاء الصبية، وصلت زحلة ليلا وبت فيها وفي الصباح قصدت بعلبك وسألت عن مخيم اللاجئين فدلوني عليه.

وقبل أن أصل إلى مدينة بعلبك قيل لي: إن هذه الخيم للاجئين الفلسطينيين! فنزلت عندها.

نظرت فإذا بعشرات الخيم هنا وهناك يغلب عليها طابع البؤس والحرمان، رأيت صبية يلعبون حولها ونساء يحملن جرات الماء، ثم رأيت صديقا لي من لوبية اسمه يوسف المحمد، وبشرني قائلا: وينك يا محمود "إجاك ولد"، فرحت أشد الفرح ببشارته وركضت معه نبحث من خيمة إلى خيمة وكلي لهفة لرؤية صغيري، لمحت أخي أحمد يقف مع بعض الصبية وكان أخي نايف معهم، فركضت نحوهم؛ وسلمت على أخوتي وفرحت بلقائهم، ودخلنا الخيمة التي تقيم بها عائلتي.

قابلتني أمي بالعناق، وبالخبر السعيد وقالت إجاك سميح يا أبو سميح، وهرعت نحو والدي العجوز مقبلا رأسه وكلتا يديه، ورأيت زوجتي الغالية لأول مرة بعد النكبة وحملت بنتي الصغيرة سميحة وقبلتها كانت ابنة سنتين، ووقعت عيناي لأول مرة على صغيري سميح وحضنته وحمدت المولى على ما وهبني، كان جميلا، أحمر الشعر وأبيض الوجه، لم تر عيناي مولودا أجمل منه، وكان والدي، يحبه حبا جما وعلمت أنَّه أذن له بأذنيه الصغيرتين أول ما خرج للحياة، وأحسست لحظتها أن الله بدأ يعوضني بالفرح عما كنت أعانيه، طلب مني والدي البقاء في بعلبك، وقال سنسجلك مع اللاجئين لتأخذ مساعدة، وبعدها تجولت في بعلبك، ولم أرتح بها، فقلت لوالدي:"هاي البلد ما بتنسكن، خلينا نروح على الشام " وقصصت عليهم قصة الشبان الطائشين، فنزل عند رأيي.

وفي صباح اليوم التالي ركبنا الترين متجهين إلى دمشق، ونزلنا في ساحة المرجة، وكنت قد علمت بأن عمي حسين اللبابيدي "والد زوجتي "يسكن في قرية عربين القريبة من دمشق وجوبر ودوما، واستأجر بيتا هناك منذ أيام على أثر

هجرته من فلسطين من بلدتنا لوبية، وصلنا إلى عمي وزوجته وكانت معي عائلتي وأمي وأبي وأخوتي وأخواتي، وساعدنا بإيجاد غرفة، أجرتها أربع ليرات، وسكنا بها جميعا.

كنت قد تماثلت للشفاء وأستطيع العمل فصرت أبحث حتى وجدت عملا بسيطا نقتات منه، وكنت كل يوم أعرج إلى حرستا وزملكا لأشتري الخبز وبعض الحاجيات، وبقينا في عربين مدة شهرين، ثم انتقلنا بعدها إلى القابون، وكانت الشركة الخماسية قريبة منا فعملت بها؛ ثم تركتها واشتغلت في شركة قاسيون لحفريات الطريق، وكنت أتقاضى أجري ليرة ونصف سورية يوميا.

سمعنا أن الحكومة السورية قد فتحت المساجد للاجئين الفلسطينيين ليسكنوا بها، ذهبنا إلى جامع الخليلي الواقع شرقي سوق الهال سنة 1949 وبقينا نقطن الجامع عدة سنوات حتَّى 1953 رزقت خلال هذه السنوات بابنتي فاطمة وأذكر أن جيراننا دبروا لنا غرفة قريبة من المسجد ريثما وضعت أم سميح حملها وتعافت من آلام الولادة، ثم ضاق بنا المسجد إذ كانت عائلات كثيرة تسكن معنا في الجامع؛كان يفصل بيننا ستائر وكانت أياما عصيبة ذقت فيها المرار ولوعة البعاد عن أرض الوطن ولكن للأمانة السوريون أكرمونا وعاملونا أحسن معاملة ولاسيما جيراننا من بيت صنوفة كامل وإخوته عمر ومحمود ومحي الدين وبدر ونزهة وليلى إذ خففوا عنا بعض متاعب الهجرة فقد كان عندهم منجرة قرب سوق الهال فاشتغل أخي الصغير أحمد عندهم سبع سنوات وتزوج خلالها من فضية الشهابي ورزق بإبراهيم، وأذكر مرة أننا أحضرنا للجامع المطهر خضر الصفوري " أبو محمد " من أجل ختان ابني سميح وستة أولاد من أقرانه ممن ولدوا بعد النكبة وتمت عملية الختان الجماعي بين بكاء الأطفال وزغاريد النساء

وفرحة الآباء وسرور الصفوري الذي تقاضى خمس ليرات سورية على ختان سبعة أولاد .

خرجت من جامع الخليلي فاستأجرت بيتا في جوبر وهناك ولد ابني محمد عام 1954، وأصبحنا عائلة كبيرة شيئا ما وصرت أبحث عن عمل يتناسب دخله مع عائلتي التي بدأت تكبر، وفي هذا العام وبعد ولادة محمد وفي أواخر شهر تشرين الثاني توفي والدي الشيخ إبراهيم عن خمس وثمانين عاما، فحزنا عليه ودفناه في مقبرة الشيخ رسلان بباب شرقي، بالقرب من قبر عمي والد زوجني حسين اللبابيدي " أبو جميل " الذي توفي عام 1949 في مسجد زيد بن ثابت حيث نقلناه للمشفى الإنكليزي بالقصاع عن 45 عاما تاركا وراءه كومة من البنين والبنات أكبرهم جميل الذي لم يتجاوز عمره 15 عاما.

وجدت عملا في الحفريات ثم تركته، وعدت للعمل بالشركة الخماسية للغزل والنسيج، سنة 1955 وكنت أتقاضى تسع ليرات سورية أسبوعيا، ثم تركت العمل بالشركة، وعملت موظفا بإحدى السفارات بدمشق لفترة وجيزة، وخلال هذه الفترة وزعت علينا مؤسسة اللاجئين قطعا صغيرة من الأراضي في مخيم اليرموك فعمرت بيتا صغيرا عام 1955 وكذا إخوتي عمروا بيوتا كانت تقع أول المخيم قريبة من منطقة الميدان الشهير، وكنت في إحدى المرات أسير في الشارع رأيت صديقي أبو عدنان السعدي ، فأخبرني بأن وزارة التربية بحاجة إلى موظفين فذهبت وتقدمت للذاتية بطلب عمل فمن حسن حظنا أن الحكومة السورية سنت قانونا جيدا يحق فيه للاجئين الفلسطينيين الإقامة والعمل بوظائف الدولة السورية، وبالفعل قبلت في وظيفة بوزارة التربية كمحضر مختبرات في دار المعلمين العامة بدمشق وهناك تعرفت على كثير من المعلمين والطلاب الذين صار لهم شأن في الدولة.

مؤامرات أضاعت البلاد والعباد:

سقوط فلسطين بيد الأعداء كان مؤامرة كبيرة حيكت خيوطها بإتقان لن أتكلم عن ضعف الجيوش التي انسحبت ولم تقاتل، أو عن فساد الأسلحة، أو عما اشتهر يومها جملة ما زالت تتردد "ماكو أوامر" أو عن الخلاف السياسي العربي والفلسطيني أو عن الفوضى التي دبت بين المقاتلين، بل سأتكلم بما شاهدته وعرفته.

في بداية 1948كان لنا مكاتب في لندن وباريس، وطلبنا منهم سلاحا وذخيرة فقالوا اكتبوا لنا طلباتكم ومواصفاتها، فكتبنا لهم وأرسلناها لبريد عمان، وكان يرأس البريد بالأردن المستر "ببراير"، وعلمنا أنه لم يكن يرسلها لمكاتبنا في أوربا، وسألناه: لماذا لم ترسلها، فاحتج بأنها مكلفة، وهذه هي المؤامرة الإنكليزية بحد ذاتها.

وهناك واقعة أخرى عندما احتاج الجيش السوري سلاحا في حرب فلسطين، أرسل ضابطا شابا اسمه فؤاد مردم لأوروبا الشرقية ليشتري السلاح ويرسله، فتجول هذا الضابط واشترى ألوف البنادق وأطنان الذخيرة من تشيكوسلوفاكيا، واتفق مع إحدى شركات النقل البحري لتنقلها من ميناء تريستا الإيطالي إلى ميناء اللاذقية السوري وأرفق الضابط مع الشحنة كل بوليصات التأمين، والفواتير، وبمؤامرة تم تحويل مسار الشحنة إلى حيفا، ووصلت إلى اليهود على طبق من ذهب، كان هوى التشيك الشيوعيين يهوديا، فقدموا تلك الشحنة دعما لهم.

وحدثني مرة الشاعر الفلسطيني ابن قرية الشجرة الباسلة، إبراهيم صالح "أبو عرب"، أنه لما اشتعلت الأحداث في فلسطين، اجتمع المجلس النيابي السوري، وقرروا إرسال الجيش السوري لفلسطين، وكان يرأس الحكومة وقتها جميل مردم بك وكان وزير دفاعه أحمد الشرباتي، وأبدوا استعدادهم للتضحية وحرب الأعداء، وهتف الجميع بشعارات رنانة، إلا شخصا واحدا بقي صامتا،

وهو فرزت المملوك، فسأله الرئيس: لماذا لا تهتف معنا يا فرزت؟ ، فقال اسالوني ماهي إمكانياتنا؟

قالوا: ما هي؟

قال: أنا سأحدثكم عن قوة الجيش السوري، أولا اخرجوا الزوار من المجلس!

وتم له ذلك، ثم استطرد قائلا: هل وافقت بريطانيا وفرنسا على الحرب، لا يوجد لدينا إمكانيات للحرب، إمكانياتنا متواضعة جدا حوالي يوم للدفاع، ويوم للهجوم، لا يوجد عندنا ذخيرة، فقط إن أردتم المساعدة، أرسلوا لهم المال!!

وبالفعل كان هذا الواقع المرير لكن الرئيس شكري القوتلي لم يعر هذا الكلام أية أهمية ربما من مواقفه الوطنية، أو حتى لا يسجل التاريخ تقاعسه، فأمر اللواء الأول بقيادة المهايني بالتحرك، فتقدم الجيش السوري من القنيطرة باتجاه الحمة السورية ثم دخل سمخ وسيطر عليها، واتجهت قوة منه إلى طبريا وتم قذف خمسة مدرعات سورية من قبل اليهود، فأرسل المهايني تقريرا للقيادة بأن الحالة عسيرة، وأن طبريا مستحيل الوصول إليها، فأمروه أن يرجع وأن يرابط في سمخ، ولو كان لدى السوريين قوى وعتاد وسلاح قوي، لوصلوا إلى حدود حيفا ويافا.

رحلة من دمشق للقدس 1955

أثناء عملي في دار المعلمين، اتجهنا برحلة إلى فلسطين، انطلقنا في الصباح الباكر، من أمام دار المعلمين وكان ذلك في ربيع جميل في شهر نيسان عام 1955وكنت مرشدا لهم لخبرتي بالطريق، تركنا دمشق واجتزنا أراضي حوران الجميلة وكان الربيع بحلته المزهرة يزين جانبي الطريق، ثم دخلنا الأراضي الأردنية، وبعد الرمثا سرنا واجتزنا وادي الأردن، ومن الشونة جنوبا وصلنا إلى جسر دامية بغور الأردن، ومنها إلى نابلس، ومررنا بقرى كبلاطة،

وحوارة اللبن، وبعدها وصلنا إلى القدس، ونزلنا قرب باب العامود بفندق قريب من الحائط الفاصل بين العرب واليهود، ونمنا ليلتها من شدة التعب، وفي الصباح الباكر أخذت الطلبة والمدرسين إلى أسواق القدس القديمة المغلقة، ذات القناطر، الشبيهة بسوق الحميدية، لكنها أقدم بكثير تعود ببنائها إلى العهد الروماني والصليبي، ثم أخذت المجموعة إلى المسجد الأقصى وأريتهم الصخرة المشرفة، وحدثتهم عن الفترات التاريخية التي مرت على هذا المسجد، وصموده أمام الصليبين والرومان ثم دخلنا إلى الحرم وصلينا وفي اليوم التالي كانت الخطة، زيارة مدينة بيت لحم، مررت من جانب مركز الشرطة، وقفت أتذكر أول مرة خطت قدماي إلى هذا المركز، كنت ابن عشر سنين قدمت يومها لوحدي من بلدتي لوبية برحلتي الأولى مترجلا بائسا، حيث كان يعمل خالي نمر العيساوي، ثم عرجت بهم إلى كنيسة المهد وتركتهم وذهبت إلى حيث كان بيت خالي ووقفت هناك أنظر وأتحسر، رأيت البيت كما هو تطلع إليه بخمسة درجات، ثم يقابلني باب كبير يفتح على صالون كبير، فيه عدة غرف وصالونات أنيقة، وأثاث فاخر، لكن البيت هذه المرة كان صامتا حزينا على فراق ساكنيه استرجعت ذكرياتي مع خالي نمر وعائلته وبنته الصغيرة وداد، وخالي محمود ومر أمام ناظري كل لحظة عشتها في هذا المكان فأجهشت بالبكاء وتذكرت بيت شعر لامرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ثم ودعت بيت خالي، مودعا معه كل ذكرياتي الجميلة وقرأت على روحه الفاتحة، ثم غادرت المكان.....لكن روحي بقيت به.

عدت إلى أصحابي في الرحلة لكن أحدا منهم لم ولن يقدر أو يشعر ما جال بخاطري من ذكريات وآلام لن يفهمها إلا من عاش بفلسطين، حاولت أن أخرج من شعور الحزن فاصطحبتهم إلى مدينة أريحا والبحر الميت، وسبح أكثر الطلبة والمدرسين بالبحر، وتجولنا في أريحا وزرنا آثار قصر هشام بن عبد الملك إذ تم تشييد هذا البناء الشامخ على يد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وهو كبير جدا ومثال لجمال الفن المعماري يمتاز بقاعاته الكبيرة والزخارف والحلي، أريتهم الحمامات والآثار التي كانت مشتى للخلفاء الأمويين، وأدخلتهم حماما فيه لوحة فسيفساء جميلة، بها أسد يقتنص غزالا، وبعد انتهاء رحلتنا غادرنا فلسطين الحبيبة و شرقنا إلى عمان، وبتنا ليلة فيها ثم عدنا إلى الشام.

مكتبتي المنزلية، والتي عكفت على جمعها طيلة حياتي ومازلت .

بدأت بتجميع كتبي الخاصة، منذ أن دخلت مدينة دمشق بداية سنة 1949 م، كنت أهتم بكتب التراجم والرجال، وأول كتاب اقتنيته كان عن تراجم الصحابة رضوان الله عليهم اسمه الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، وهناك كتاب آخر اقتنيته يشبهه اسمه، الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبد البر الاندلسي، وهو كتاب عام لم يكن بدقة كتاب التميز لابن حجر، تحدث به ابن عبد البر عن الصحابة وما ظن بأنَّهم من الصحابة.

ثم صار عندي هواية في جمع الكتب حتَّى أضحت مكتبتي جامعة مانعة، بها أكثر من عشرة خزائن من أهم تفاسير القرآن الكريم كالقرطبي والنسفي والكشاف وظلال القرآن وكتب الأحاديث الشريفة كالبخاري ومسلم وباقي الكتب الصحاح الستة وكتاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف

الذي وضعه مستشرقون هولنديون وأما كتب التراجم فلا أظن أنني تركت واحدًا مشهورا منها والتي غطت جميع القرون منذ القرن الهجري الأول وحتَّى القرن الرابع العشر الهجري أمثال الإصابة والاستيعاب وسير أعلام النبلاء والنجوم الزاهرة والأعلام للزركلي وعشرات غيرها وأما الفلسطينيات فخصصت لها خزانتين حوتا على أهم الكتب الفلسطينية من بلادنا فلسطين لمصطفى مراد الدباغ مرورا بكتب عارف العارف مثل النكبة والمفصل في تاريخ القدس إلى آخر الكتب التي تحدثت عن القرى الفلسطينية كالجاعونة وصفورية والطيرة وغيرها، وأما أهم ما كان يميز مكتبتي عن غيرها هو اهتمامي بالكتب التاريخية ولا سيما الحقبة العثمانية منها فاقتنيت معظم المراجع العربية التي تحدثت عن الدولة العثمانية مثل كتاب الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها لعبد العزيز الشناوي وتاريخ الدولة العثمانية ومذكرات السلطان عبد الحميد وغيرها من عشرات العناوين ومن الكتب التاريخية التي اقتنيتها البداية والنهاية وتاريخ الطبري وكتب الدولة الأيوبية والنورية، وأما مصير مكتبتي بعد الأحداث الأليمة التي ألمت بسورية عامة وبمخيم اليرموك خاصة فمنذ بداية عام 2012 شعرت بأن الأيام القادمة تنذر بالسوء ولا سيما في المنطقة التي أعيش فيها وما حولها فقمت بالتبرع بجميع الكتب الدينية لبعض معاهد الشيخ محمد راتب النابلسي للاستفادة منها وأبقيت على الفلسطينيات فقط وبقيت معي حتَّى خرجت من المخيم وعلمت أن ابني سامرا قام بنقلها لمكان آمن جنوب المخيم بعد تدمير ساحة الريجة التي كنت أسكنها وتواترت الأخبار عن حرق بعضها ووجود البعض سالما تحت الركام في بيت حماتي أم عدنان أطال الله عمرها .

من مخيم اليرموك رحلة الحج الأولى 1958

في سنة 1958عزمت على الحج مع والدتي وكنت ابن ثلاثين عاما وأمي تجاوزت الستين، ورافقنا عجائز كثر من المخيم أذكر منهم أبو العبد الترشحاني، وزكية الخروب، أم عبد المجيد من صفورية ، انطلقنا من دمشق بالباص، باتجاه ميناء اللاذقية، وكانت باخرة الجمهورية بانتظارنا، والتي يملكها، الثري المصري أحمد عبود باشا رحمه الله.وانطلقنا من ميناء اللاذقية الساعة الحادية عشر قبل الظهر، تمخر عباب البحر متجهة إلى ميناء بورسعيد المصري وبقينا عشرين ساعة حتَّى وصلنا مساء لبورسعيد.

انطلقت الباخرة باتجاه مدينة الإسماعيلية المصرية، وكان هناك حشود من الشعب المصري يمتطون الخيل واقفين ينتظروننا محيين لنا يهتفون فرحين مهللين للوحدة العربية، ثم وصلنا الإسماعيلية ومكثنا بها خمس ساعات، ننتظر دورنا للمرور عبر القناة، وفي الصباح وصلنا مدينة السويس، ثم انطلقنا باتجاه مدينة جدة عبر البحر الأحمر وبقينا ليلتين كاملتين حتَّى وصلناها، واستغرقت الرحلة من اللاذقية إلى جدة حوالي ستة أيام.

وعندما وصلنا جدة توزعنا على المطوفين، ونزلت عند مطوف اسمه حسن القاضي، وفي المساء رحلنا إلى مكة، وبقينا فيها حوالي عشرين يوما حتَّى صعدنا عرفات، وكان أكثر الحجاج من مدينة اللاذقية، وفي عرفات استضافنا الشيخ يوسف ياسين وهو سوري من مدينة اللاذقية ويعمل مستشارا للملك عبد العزيز .

وبقينا يومين بضيافته يوما في عرفة وآخر في منى، وفي اليوم الثالث، اتجهنا إلى مكة، لطواف الإفاضة.

وبقينا في مكة حوالي أسبوعين، ننتظر دورنا للذهاب إلى المدينة المنورة، لزيارة مسجد رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

ركبنا السيارات ليلا وكانت الطرق وعرة وصعبة، وبقينا طول الليل إلى أن وصلنا في الصباح للمدينة المنورة.

استأجرنا بيوتا انا وأصحابي من أهل مخيم اليرموك ومكثنا هناك أسبوعا زرنا أحد والبقيع ومساجد كثيرة، كمسجد قباء ومسجد القبلتين.ثم اتجهنا إلى جدة للعودة إلى أرض الوطن.

نزلنا بجدة بمكان اسمه، مدينة الحجاج، وتعرفت هناك على شيخ مشهور لا تسعفني ذاكرتي الآن لتذكر اسمه، حملني كتبا قيمة وقال أوصلها للشيخين بهجة البيطار وزهير الشاويش. " الشيخ هو محمد نصيف بعد استرجاع الذاكرة"

ثم ركبنا الباخرة من جدة متجهين إلى اللاذقية، فأصبت بدوار البحر. ومكثت بمشفى الباخرة يومين لتلقي العلاج. ثم نزلت بمنطقة الطور وأتممت علاجي هناك. وصلنا اللاذقية وكان في انتظارنا قريبي حسين العيسى الصمادي لان أمه زكية الخروب كانت معنا

ثم استقللنا سيارة أوصلتنا لدمشق، ووجدنا أفواجا من البشر ينتظروننا لاسيما وأننا كنا أول مجموعة حجيج تخرج من مخيم اليرموك، كانوا فرحين بوصولنا سالمين.والحمد لله رب العالمين، الذي قدر ويسر لنا أداء هذه الفريضة.

مشروع جامع الرجولة 1961

في عام 1956 أي بعد بناء المخيم بأقل من سنتين تم بناء جامع عبد القادر الحسيني في وسط المخيم، وبما أنَّه يبعد كثيرا عن شمال المخيم فقد كان بعض الناس يذهبون لحي القاعة الميداني للصلاة، وقد توسع المخيم وبنينا بيوتا متواضعة جانب الطريق على شارع اليرموك وكان شرقنا بستان كبير يملكه آل الرجولة وهم من حي الميدان القريب من المخيم وهم من كرام الناس، فلما

توسع الناس بالبناء، عرض آل الرجولة بستانهم للبيع وقسموه لمحاضر صغيرة كل قصبة 40مترا وتوكل عليها رجل فاضل اسمه أبو خليل طناطرة وهو من حي القاعة وبدأ الناس يشترون ويبنون.

اتصلت بأبي خليل وقلت له خصصوا لنا أرضا لبناء مسجد، فقال سأخبر عادل الرجولة صاحب الأرض بهذا الطلب، وبعد مدة قصيرة جاء الخبر السار؛ فقد تبرع آل الرجولة لنا بقطعة أرض مساحتها أكثر من دونم، سررنا جدا وسرعان ما شكلنا لجنة من الجيران منهم محمد يوسف الخطيب والأستاذ علي حمد وغيرهم من الأكارم، بدأنا بالسعي وانتظرنا مخططا من مديرية أوقاف دمشق وبفضل الله لم يتأخر وباشرنا بالعمل وبتكاليف بسيطة عبارة عما جمعناه من أهل الخير والجيران إذ كنا ندق الأبواب ونطلب من الجيران المساهمة في بناء هذا المسجد وأذكر مرة أننا قرعنا بابا وانتبه لنا جارهم عثمان الزين وهو قريب لي، فشكل بسبابتيه إشارة صليب حتَّى ينبهنا إلى أن هذا البيت تسكنه عائلة مسيحية ولكن تورطنا وقرعنا الباب فخرجت عجوز فلما عرفت مرادنا حملت خمس ليرات سورية وتبرعت بها قائلة ابني بالشغل وليس عندي الآن إلا هذه المصاري، وعندما يأتي من عمله سأطلب منه أن يتبرع أيضا، وكانت الخمس ليرات في ذلك الوقت مبلغا محترما يعادل أجرة عامل في اليوم، واستمرت التبرعات حتَّى رفعناه أولا بأول وكان أهل المخيم كلهم يساعدون منهم بالمال ومنهم بالمجهود والبناء والهمة حتَّى جاء عام 1962وقام البناء وأقمنا الصلاة بشكل منتظم، وكانت تكلفة البناء حوالي ستين ألف ليرة سورية وهو مبلغ ضخم في تلك الآونة وكانت الناس مستغربة كيف تم ذلك وكأنها معجزة وكله بفضل الله ثم الاكارم، وبعد خمس سنوات من بناء المسجد أقمنا له مئذنة شاهقة، وكنت خلال السنوات الأولى من افتتاحه المسؤول الأول عنه فأنا أرفع الأذان

وأؤم المصلين أكثر الأوقات وأخطب الجمعة وأمي وزوجتي وبناتي ينظفن المسجد بمساعدة الجيران وساهمت في تأسيس مكتبة قيمة بالمسجد أحضرت لها بعض كتب التفسير والحديث حتَّى اشتركنا في مجلة حضارة الإسلام التي كانت تصل تباعا، كما شجعت نشر الدروس العلمية فدعوت عددًا من العلماء والدعاة فحضروا أو ندبوا بعض تلاميذهم، وأذكر أنني تعرفت على السيدة منيرة القبيسي أيام دار المعلمين عام 1959 ومن حرصها على توعية الناس طلبت مني أن تعطي دروسا لنساء فلسطين في المخيم فاستجبتُ لها وخصصنا غرفة في منزلي لهذا الغرض وتوطدتْ علاقتها مع أمي وزوجتي التي أسمت مولودتها الجديدة منيرة 1960 تيمنا بها، وبعد الانتهاء من بناء جامع الرجولة انتقل نشاط السيدة منيرة للمسجد وبعد توسع أعمالها بدمشق انتدبت تلميذتين هما فاطمة قويدر وفاطمة خباز في التدريس واستمرتا لفترة طويلة.

وبفضل الله استمر بناء المساجد في المخيم حتَّى بلغ عددها أكثر من عشرة غير مساجد الحجر الأسود وحي العروبة والتقدم.

الجمعية الخيرية الفلسطينية 1966

شعر كرام الناس أن المخيم غدا مدينة كبيرة فيه أسواق وشوارع وفيه أيضا معوزون ومحتاجون، فقام أحد الغيورين بإنشاء الجمعية ودعا وجهاء المخيم للمشاركة ولبيت دعوته وأثنينا عليها، وبالفعل قدمنا طلبا لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وحصلنا على ترخيص نظامي بدأنا بتسجيل أسماء الأعضاء وأخذ اشتراكات منهم إذ كانت نصف ليرة شهرية بالإضافة إلى ما نجمعه من المساجد والمحسنين من أموال أو مواد عينية، وبدأنا نصرف رواتب للمحتاجين وبعد مدة أنشأنا مستوصفا صغيرا في شارع لوبية استأجرناه من بيت الزين، فيه

عيادة للنساء والأطفال والأسنان واقترحت على الجمعية أن نوسع البناء فاخترت قطعة أرض قرب مسجد عبد القادر الحسيني وتم بناء مشفى متكامل فيه كل الخدمات الطبية ويعمل فيه خيرة أطباء وطبيبات المخيم سمي بمشفى الباسل، وذلك بعد أن خسرنا المشفى الكبير الذي تبرع به محسن كريم إذ استولى عليه جيش التحرير الفلسطيني بعد الانتهاء من بنائه وتجهيزه.

وتناوب على رئاسة الجمعية عدة أشخاص متل أحمد موعد ونظير حداد وإبراهيم البيطار ونايف الصمادي، وأبو ماجد جلبوط وغيرهم، وأنا ترأستها لبعض الدورات وكلنا كنا نقوم على خدمتها صباحا ومساء وكانت مكانتها ثاني جمعية خيرية في سوريا بعد جمعية المواساة الخيرية، علما بأننا لم نكن نفرق بين فلسطيني وسوري فالفقير كان يتلقى المساعدة أيا كان.

الالتحاق بالمقاومة الفلسطينية في الأردن 1968

التحقت بالمقاومة الفلسطينية عندما كانت في أوجها لا سيما بعد معركة الكرامة إذ أعطت هذه المعركة زخما لأغلب الفلسطينيين وأحيت فينا روح المقاومة والجهاد لا سيما بعد توالي نكبة 48 ونكسة 67، وكنت وقتها موظفا بالتربية في مدينة دمشق إذ كنت استغل عطلة المدارس الصيفية وأذهب للتدريب على حمل السلاح كشأن الكثيرين غيري .

وفي إحدى العطل الصيفية عام 1968 رحلت إلى الأردن مع أفراد من المقاومة، تركنا مدينة درعا السورية ودخلنا الأراضي الأردنية وكان الدخول يسيرا، والخروج أيضا وبعدها اتجهنا إلى منطقة كفر أسد بالغور، وبعدها صعدنا إلى مدينة إربد ثم سحم الكفارات وقضينا الليل نراقب العدو، وبعدها اشتبكنا معهم على ضفة النهر ولم تقع إصابات وبقيت مع المجاهدين لعدة أيام إذ كنت

حريصا على أن أتقرب منهم وأعلمهم الصلاة لأنني وجدت جلهم للأسف لا يعرف صلاة ولا صياما، ولا عقيدة قتالية، الأكثرية قدموا من العراق ومن سوريا لم يكن هنالك هدف يوحدنا.

وفي إحدى الصيفيات قصدت منطقة سحم الجولان بهدف المقاومة ورابطت مع الثوار هناك وسط الطبيعة الجميلة، تحيط بنا أشجار السنديان والبلوط ومرة أخرى رحلت إلى منطقة الأغوار وبعد اشتباكات مع العدو، قمنا بعملية بسيطة لم تؤت ثمارا طيبة ونحن بطريق العودة أوقفنا ضابط أردني سائلا إيانا: ما الخبر يا إخوان؟ فنكرنا الحدث ولما رأى الارتباك باديا علينا طمأننا وقال: نحن معكم لا تخافوا، حيا الله النشامى.

جل الضباط كانوا يؤيدون مقاومتنا ويساعدوننا، لكن للأسف كنا جماعات متفرقة، لا كلمة توحدنا، ولا هدف يجمعنا، كان أكثر المقاتلين شبابا في ربيع العمر هدفهم اقتناء بندقية يفرحون بها كالصغار، وكان كثير من أفراد المقاومة لديهم تصرفات شاذة وغريبة مما كرَّه الشعب الأردني بنا كنصب الحواجز والتفتيش وبعض عمليات السرقة والنهب والخطف وغيرها، وسمعت مرة أن أحد عناصر الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ذهب لأحد مساجد عمان وبعد الانتهاء من صلاة الجمعة أخذ الميكرفون ودعا المصلين لحضور حفل كبير تقيمه الجبهة بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد القائد البطل لينين!! ، كما أن هناك جهات أردنية مشبوهة عملت على تأجيج الصراع فكما علمت أنهم كانوا يطلبون من عناصرهم ارتداء لباس الفدائيين والإساءة للناس حتى يقنعوا الشارع بجناحيه أن المقاومة الفلسطينية تفعل الأفاعيل.

إلا وبالرغم من هذا الوضع المزري فقد سمعت أنه في بعض المناطق قام رجل اسمه عبد الله عزام بتكوين كتيبة أطلق عليها كتيبة الشيوخ تتبع تعاليم الدين

إلا أنني لم أحظ بالتعرف عليهم، وحتَّى هذه الكتيبة لم يكتب لها النجاح بسبب استشراء الفساد. أذكر من أصدقائي فياض بن رجا السليمان من لوبية وكان نقيبا في قوات التحرير الشعبية قوات الصاعقة، التي كانت تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية.

عندما تكشفت الأمور فقدت ثقتي بالعمل هناك وبأن الفتنة قادمة لا محالة، وشددت الرحال وعدت إلى سوريا وأيقنت أن الجهاد الحقيقي بتربية أولادي وتعليمهم وإعداد النشء الصالح وأيقنت أن قضيتنا قد ذهبت مع أدراج الرياح، وبالفعل بعد أن أحجمت عن الذهاب حدثت المواجهات المؤسفة بين المقاومة الفلسطينية والجيش الأردني، ويومها فكرت بمشروع تجاري بسيط يتناسب مع توجهي وتطلعاتي، لا سيما أن عائلتي بدأت تكبر والمصاريف كثيرة.

مكتبة الطلاب الحديثة 1969

تقع في آخر شارع لوبية، تم انشاؤها عام 1969، راودتني فكرة إنشاء المكتبة، من شدة حبي وتعلقي بالقراءة، واقتناء الكتب الأدبية والأدبية والتاريخية، وكان العشرات من طالبي العلم يتهافتون على منزلي، وحيث أن ارتيادهم لمنزلي بدأ يشكل لي بعضا من الازعاج، قررت أن أبحث عن مكان ملائم، لإنشاء مكتبة أدبية منها مصدر رزق بالإضافة إلى خدمة طلاب العلم، فاستأجرت بالبداية محلا صغيرا، في أول شارع لوبية، وبدأت أزود مكتبتي بأمهات الكتب الأدبية المهمة، وسرني إقبال عامة الناس عليها، منهم من يهوى المطالعة، ومنهم من يبحث عن الأدب، ومنهم من يقتني الكتب، وعندما ضاق بي المكان، انتقلت إلى مكان أوسع، وأكبر من ذي قبل، واستأجرت مكانا آخر من السيد محمد علي عودة " أبو رياض" في شارع لوبية يبعد عن المحل الأول أقل من مئة مترٍ،

وكانت أول مكتبة في مخيم اليرموك تبيع الكتب وتؤجرها، وذاع صيتها، وأخذ الناس يقبلون عليها من المخيم ومن مناطق كثيرة تحيط به، وبدأتُ أفكر بإعارة الكتب الأدبية للطلبة، مقابل أجر رمزي مقداره عشرة قروش سورية والتي يقال لها فرنكين وهي جزء من الليرة التي كانت تساوي مئة قرش، فطالب المرحلة الثانوية عندما يكلف بكتابة موضوع عن شاعر ما أو كاتب لا يستطيع أن يشتري الكتب والمصادر فكانت هذه الطريقة حلا جيدا، وأكثر الكتب التي كانت تهم الطلبة هي كتب شوقي ضيف في الأدب العربي، وتاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري، وكنت اقتني عشرات الكتب، من إصدار دار المعارف المصرية، التي تتحدث عن عظماء الأدب العربي والاسلامي كالمبرد، والمتنبي، وابن زيدون، وابن المقفع، و.....

ازداد الأقبال على المكتبة من كل ناحية وصوب، فاقتنيت كتبا تخص طلبة الدراسات العليا، في الجامعات السورية، واللبنانية مثل كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، والأمالي لأبي علي القالي، وأما أطفال المخيم فكم كنت أسعد لسعادتهم عندما يستأجر الطفل منهم اللغز أو القصة ويعيدها بعد يوم وبعد أن يقرأها ربما مع أطفال الحي ليأخذ غيرها؛ مقابل خمسة قروش وحتَّى الأطفال الفقراء الذين لا يملكون الأجرة كنت أسامحهم والمهم عندي أن أحبب القراءة لدى أطفال المخيم . وأشهر الألغاز كانت من سلسلة " المغامرون الخمسة " حيث كان بعض الصبية يتنافسون باقتناء المجموعة الكاملة فيترددون يوميا على المكتبة للبحث عن الألغاز النادرة لإكمال مجموعتهم، ثم لا يلبث أحدهم عندما يكبر فيبيعني مجموعته لأنه أصبح يهتم بقراءة الكتب المفيدة التي تناسب عمره.

كانت علاقتي بمرتادي مكتبتي، علاقة الأب ببنيه، أسدي لهم النصح، وأوجههم لطريق الدين والعلم، وأحل لهم أيضا مشاكلهم، حتَّى صار عندي

صداقات مع رجال المخيم لا حصر له ومن ذوي الاتجاهات السياسية والفكرية المختلفة والكل كان يسر بمجالستي أذكر منهم الناقد يوسف اليوسف، وأحمد نسيم البرقاوي، ود. فيصل دراج، وعاطف حياتلي، وموسى اللكود ومحمد الطيب الإبراهيم وغيرهم، وكانت أسعاري أقل من غيري، مراعاة لظروف أهل المخيم، وكنت دائما أركب دراجتي وأقصد المسكية وأسواق دمشق العتيقة أحضر بضاعتي من هناك، كالقرطاسية والدفاتر وبعض الكتب .

قررت سنة 1992، ترك المكتبة طلبا للراحة ، وسلمتها لابني سامر، الذي أدخل عليها روح الشباب، وطورها أسوة بباقي المكتبات، وبقي سامر يسترزق منها إلى أن حدث ما حدث في مخيم اليرموك، وأغلقت المكتبة وأغلقت كل المحلات التجارية، وأصبحت أطلالا.

رحلة الحج الثانية 1972 / 1973

كان استعدادنا لأداء فريضة الحج التي تاقت لها نفس زوجتي أم سميح فقد خشيت ابنة 44 عاما أن تلقى الله قبل أن تؤدي الفريضة وكذا تاقت للحج أمي الحجة وأختي فريجة أم عارف التي تكبرني ب 12 عاما وبعد أيام كبرت القائمة لأكثر من عشرة حجاج من المخيم أغلبهن نسوة منهن من لوبية صالحة العبد وعائشة الباش ومن قرية الشجرة سعدة الحنيف ومن نمرين أم أحمد، وأما الرجل الوحيد الذي كان معنا هو يوسف الخطيب من الخالصة وجميعهم ختايرة أعان الله من يهتم بهم، وبعد أن تمت الموافقة دفع كل حاج أربعمئة ليرة سورية لا غير تتضمن أجرة الباص والطواف والإقامة.

قبل موعد سفرنا بأسبوعين تحول بيتنا في كل مساء إلى ناد للمودعات إذ كان من عادة نساء المخيم من الأقارب والجارات أن يحضرن إلى بيت المسافرين

للحج ويجلبن هدية متواضعة مثل باكيت سكاكر ناشد إخوان بليرة وربع أو علبة شوكلاتة بأربع ليرات أو 2كغ برتقال أو غير ذلك. ويبدأن بالموشحات والأناشيد مثل:

طلع البدر علينا.
ومحمد يا حبيبي سلام عليك.
ويا آمنة بشراك سبحان من أعطاك...
بيعي جاجاتك يا حجة واقضي حاجاتك.
وبيعي الماكينة وزوري المدينة.
يا زايرين النبي خذوا محاملكو
لا أنا حديد ولا فولاذ أثقلكو.
نيالك يا حجة ركبتي بالبابور.

يعني: هنيئا لك ياحجة ستركبين بالقطار وربما هذه الأغنية من التراث الفلسطيني إذ كان الناس هناك وبعد مد الخط الحديدي الحجازي يركبونه للمدينة من يافا إلى المدينة المنورة، وليس هذا خاص بنا بل في المخيم كله فالاحتفال بالذهاب للحج كان يعدله الفرحة بقدوم الحجاج والأقارب والجيران الذين يجتمعون للتوديع فالرجال كانوا غالبا يجتمعون في المسجد.

ولما حان موعد السفر حضر باصان أو ثلاثة للمخيم على شارع اليرموك وكانت القافلة بإشراف الحاج أحمد موعد من صفورية واعتقد أن معظم ركابها من اللاجئين الفلسطينيين فحضر للمخيم حجاج من السبينة والسيدة زينب ودنون وخان الشيح وجرمانا وغيرها وعند صعود الركاب بدأت المشكلات من مرافقي الحجاج كل يريد أن تجلس جماعته بالمقدمة تأخر المسير لأكثر من ساعة حتَّى

أعطى الحاج أحمد موعد أمرا للسائقين بقوله: اسبقوني على القدم، فامتثل السائقون لأمره وما أن وصلت الباصات للقدم حتَّى سبقها المودعون وهناك تم إعادة المشكلات، وبعد عناء طويل تم التوصل لاتفاق ما سارت بموجبه الباصات صوب درعا ثم باتجاه الأردن ثم مررنا بحارة عمار ووصلنا للمدينة المنورة وهناك توزعنا ورفاقي في أماكن متعددة وذهبت لزقاق الأغوات قرب الحرم، ونزلنا ببيت أم حمزة أنا وأم سميح وأختي أم عارف رحمهم الله، وفي المدينة كنت قد تعرفت على أبي أحمد إبراهيم الكبير هو من قرية البعينة هاجر لفلسطين على إثر ثورة 1936 إذ تم الاتفاق في ذلك العام على نفي عدد من الثوار للسعودية وهو مقيم في المدينة منذ ذلك الحين والمعروف بأبي أحمد الفلسطيني وهو قريب أخي أبي يوسف وهو ابن خالته، فرح بلقائنا وذبح لنا ذبيحة كبيرة وسررنا بلقائه ثم اصطحبنا الى بساتين حول المدينة المنورة في جولة جميلة وقال إن أرضها خضراء تشبه بساتين الشام وغوطتها وبالفعل كانت كذلك.

تابعنا لمكة محرمين مكبرين مهللين، وأدينا مناسك حج هذا العام وكان الجو باردًا يوافق آخر بداية العام الميلادي الجديد 1973 فبعد طواف القدوم والسعي خرجنا إلى منى وسكنا بخيمة لم تعجبني كانت مزدحمة جدا، وبحثت ووجدت خيمة مريحة وواسعة كانت أجرتها خمسين ريالا وفي الصباح أحببت أن أذهب لعرفة مشيا على الأقدام، وكانت تبعد 17كيلو مترًا عن منى، وفي الطريق وجدت أناسا كثر، ومررنا بمسجد نمرة وكان مكتظا ثم تقدمنا نحو عرفات وتعرفت هناك على شيخ سعودي أظن اسمه الشيخ عبد العزيز، وهو المراقب العام للحرم وتوطدت علاقتي به وكنت كلما زرت مكة أتردد عليه ودعاني مرة لمجلسه في جبل أبو قبيس فوجدت شخصين يضحكان فقلت لهما: هل أنتما أخوان؟ فقالا: لا، نحن أكثر من ذلك هذا كان زوج أختي وتفرقا!!

فقلت لهما متعجبا: وبقيتما صديقين!!

قال: نعم ما ذنبي نحن أصدقاء قبل المصاهرة!!

فقلت لهما: ونعم الاخلاق.

تأثرت بهذا الموقف وقلت صدق الله العظيم القائل: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾

وبالمناسبة حدثني ابني سهيل أنه ذهب مرة لزيارة صديق له اسمه الشيخ محي الدين شهاب الدين في منطقة قطنا غرب دمشق، فأرسل شخصا إلى محطة الحافلات ليحضره بسيارته إلى المنزل، فعرف السائق عن نفسه قائلا كان الشيخ صهري فدهش سهيل من ذلك وسأله: وما زلتم أصدقاء؟! فأجابه: "يا أخي رابط الأخوة في الدين أقوى من رابط النسب "

بعد أن انتهينا من شعائر الحج عدنا ثانية للمدينة المنورة في طريقنا للشام وبعد أداء الصلاة في مسجد رسول الله والتسوق من الأسواق، ركبنا في الباص لنتجه إلى الشام كانت أغراض الحجاج فوق الوصف تعلو الباص، صعدت لأجلس في مكاني فحصل نزاع بيني وبين رجل من القافلة يريد أن يجلس في المقدمة فتدخل الحاج أحمد موعد وحل المشكلة بأن أركبني معه في التكسي، وفعلاً تركت مقعدي وانطلقنا أمام الباص وطار الحاج أحمد بسيارته ولم يقف إلا في الحدود في "حالة عمار" على بعد ثمانمائة كم عند الحدود السعودية الأردنية، وقفنا ننتظر الباص مرت ساعة وساعتان وثلاث وأخيرًا سألنا بعض الباصات القادمة فأخبرونا أن أحد الباصات ومن كثرة الحمولة قلب على الطريق على بعد ستة عشر كيلا من المدينة المنورة كما أكد الخبر شرطة الحدود السعودية وأخبرتنا أن هناك قتلى وجرحى!!

رجعنا إلى المكان بعد هذه المسافة الطويلة وقد أنهكنا التعب، وساورنا الخوف بعد أن شاهدنا الباص مقلوبا على الطريق فانطلقنا للمشفى فعلمنا أن ستة ركاب لقوا حتفهم وأن باقي الركاب ما بين جريح ومكسور وأن السائق البدوي الذي ينتمي لعشيرة الذيابات ومن سكان السيدة زينب لاذ بالفرار، وأما الرجل الذي أصر أن يجلس مكاني، فقد لقي حتفه وبعد دفنه مع الآخرين بالبقيع وعلاج المصابين واستئجار باص جديد تأخرنا في العودة كثيرا وقد وصلت معظم القوافل لدمشق إلا قافلتنا ولم تكن يومها وسائل الاتصالات ميسرة لنخبر الأهل حتَّى نطمئنهم.

تأخرنا أكثر من شهر بسبب المصابين بالمشافي وبعد وصول الموكب الحزين الذي فقد ستة من ركابه وخلف عددا من المصابين والجرحى كانت من بينهم زوجتي أم سميح بالفعل كان الحزن نصيبنا فما أن انتهى موسم التهنئة من أقاربنا وجيراننا بالحج وبسلامة الوصول وبعد توزيع التمر وماء زمزم وقطع القماش على المهنئين بدأت الحاجة جميلة بنت حسين اللبابيدي تشعر بالإعياء وظننا أنها وعكة عابرة ولكن الحالة استمرت واستمرت فأحضرت لها طبيب الجمعية الخيرية الفلسطينية من شارع لوبية الذي أخبرنا أنها تعاني من جلطة بالدماغ من أثر صدمة قوية!!

بعد أربعة أشهر من الوصول إلى دمشق من رحلة الحج وفي الحادي عشر من حزيران من عام 1973 أسلمت أم سميح روحها لبارئها في مشفى المجتهد عن أربع وأربعين ربيعا بعد أن تركت ثلاثة ذكور، وسبع بنات، وأصغرهم هدى التي لم تتجاوز سنواتها الخمس بعد، رحمها الله وجعل مثواها جنة عرضها السموات والأرض وبعدها بأقل من عام تأهلت من السيدة فاطمة علي حسن" أم سهيل " من قريتي لوبية وكانت ممن بقي أهلها بلبنان ورزقت منها بثلاثة ذكور

وبنت واحدة لم يبق أحد منهم في دمشق وهي تعيش معي ببولاق الدكرور بالقاهرة تعتني بي وتتحملني فجزاها الله كل خير وبركة.

زيارة شمال فلسطين ولوبية بعد النكبة

زرت فلسطين عدة مرات على التوالي 89/ 90/ 95 ففي نهاية ثمانينات القرن الماضي سمح لمن له أقارب داخل فلسطين بزيارتهم " أي الأقارب" إذا قام أحد أقاربه من الدرجة الأولى بعمل تصريح من قبل المحتل وبالفعل قامت ابنتي سميحة بإجراء اللازم، ووصلتُ الأردن مع أخي نايف وهناك مكثنا عدة أيام ريثما تم استخراج جوازات أردنية مؤقتة لهذه الزيارة وبالفعل تم حجز وثائقنا الفلسطينية وتسليمنا الجوازات الأردنية المؤقتة.

غادرنا الأردن ودخلنا فلسطين عن طريق جسر بنات يعقوب وكان في استقبالنا عدد من أحفادي انطلقوا بنا إلى قرية البعينة حيث تقيم سميحة وزوجها وأولادها، كما عملت جولة لأغلب مدن فلسطين وقراها، من شمالها لجنوبها ذهبت قي اليوم التالي لزيارة قريتي لوبية وليتني لم أذهب لم يبق من القرية إلا حجارة مكومة هنا وهناك، استرجعت ذكريات الصغر والشباب، لكنني لم أجد إلا أطلالا لماض جميل وبقايا أوان فخارية متناثرة هنا وهناك ووقفت عند بئر جودة المهجور، وتذكرت كيف كنت أجلب الماء للبيت مع أيام حلوة لا تخلو من الشقاوة واللهو، زرت بقايا المقبرة لم أجد لا قبر جدتنا زينة ولا قبر جدنا خليل ولا غيرهما؛ وجدت حجارة وشواهد متناثرة هنا وهناك ولم يبق من لوبية إلا ما يدمي القلب فرجعت خائبا حزينا لبيت ابنتي في قرية البعينة

زرت صفد سنة 93 وتجولت في أحيائها وذهبت لأشهر مكان بها هو المعهد وهو بناء عثماني ووقفت عند برج الساعة الذي كان هدية من السلطان

عبد الحميد، ثم عرجت على حي الأكراد فوجدته مدمرا كليا لم يبق منه إلا بعض المعالم وكم شجرة تين وزيتون، ثم صعدت أعلى جبل كنعان وبعدها هبطنا للجاعونة وزرت بيت الأمريكاني، والذي كان ملكا لبيت الجلبوط، كان بناء جميلا واسعا، أما باقي الأحياء في الجاعونة فقد جددها اليهود وسكنوا فيها وأسموها "روش بينا " الزيارة كانت برفقة ابن خالتي زياد الزرعيني، ثم انطلقنا إلى عكا المدينة التي استعصت على كل الغزاة وما زالت ذاكرتها عصية على المحتلين فهي تتمرد على التغيير والتهويد، ما زالت شامخة بمينائها وأسوارها ومساجدها وشوارعها العتيقة وبمن تبقى متجذرا من أهلها، وعزمني زياد مع خالتي أم توفيق على مطعم يطل على البحر وأكلنا سمكا طازجا، ثم تجولت وزرت مكانا اسمه خان التجار وهو بناء عثماني كبير فيه عدة طوابق ينزل فيه التجار، ثم دخلنا مسجد أحمد باشا الجزار ودخلت المعهد الشرعي فوجدته مغلقا لا حياة به

قلت لخالتي وابنها زياد اتركوني ساعة حرا طليقا متأملا، فخرجت من المطعم واتجهت نحو البحر، فوقفت مناجيا: يا أيها البحر هل تذكر صلاح الدين؟هل تذكر عيسى العوام الذي كان يأتي للمجاهدين في عكا سابحا يزودهم بالمال والعتاد؟ كيف رخصت حتى سقطت بيد الأعداء هينا لينا؟ وأنا سارح بهذه الأفكار نظرت شرقا فرأيت امرأة محجبة عليها سمات الكمال والوقار فهرعت نحوها فرحا وألقيت عليها التحية وعرفتها أني قادم من الشام بعد رحلة لجوء صعبة، وعرفتني بأنها عكاوية وأنها ذاهبة لكوبات حليم وستعود سريعا لتصطحبني لبيتها وتعرفني على أهل بيتها فاعتذرت منها، ومن خلال حديثها الودي والقصير معي أعجبت بوطنيتها وتمسكها بالبلاد، وقلت يا للعجب مازال في عكا مسلمات كريمات مرابطات وحمدت الله على هذا.

ومنها توجهت إلى حيفا وصعدنا إلى جبل الكرمل وشاهدنا البواخر التي ترسو في ميناء حيفا، ثم ذهبنا للصلاة في مسجد الاستقلال وهو قريب من شارع الناصرة وبقربه مكتبة كانت ملكا لعائلة باكير من طيرة حيفا، وأخذت أسترجع ذكريات الشباب فكم من مرة دخلت هذه المكتبة واشتريت منها مجلات وقصصا، وكم حزنت كيف لا والمكتبة أصبحت ملكا ليهودي جعلها مكانا لبيع زيوت السيارات. دخلت جامع الاستقلال لم أجد به إلا صفا واحدا للمصلين وقلت هيهات كان هذا المسجد مكتظا في يوم ما بالجموع الغفيرة حتَّى أن المصلين لا يجدون مكانا بالداخل ويفترشون خارجه لأداء الصلاة، وكيف كان الشيخ محمد نمر الخطيب يهدر بصوته بخطبه الرنانة، وجدت المسجد كئيبا لا حياة به، وقد سمح اليهود بوجود محكمة شرعية داخل المسجد لبقايا المسلمين الموجودين بحيفا. قلت أهذه حيفا التي كانت تموج بأناسها نشاطا وحيوية كما شطآنها؟

وقضيت زياراتي الثلاث بين أغلب ربوع البلاد وأنا متألم ومتحسر، وخرجت مع شباب الحركة الإسلامية في مسيرة ليافا وهناك تمَّ تنظيف وترميم جامع سيدنا علي بن عليل الجميل القابع على البحر ثم تمَّ افتتاحه بالقوة، زرت أم الفحم والتقيت بعدد من الشباب هناك وجدتهم يعملون كخلية نحل مؤسسات ومراكز وجامعة ومجلات ودورات عندها أيقنت أن شباب الأمة بخير وأن بوادر العمل الصحيح ضد المحتل وأطماعه قد آن أوانها. ولكني استأت من الخلاف بين الشباب هناك بين جناح الشيخ رائد الذي يرفض المشاركة في الحياة السياسية والبرلمانية تحت ظلال الاحتلال وبين الشيخ عبد الله نمر درويش الذي يؤمن بالمشاركة وقد حاولت الصلح بينهما لكني وجدت الاختلاف كبيرا وبالرغم من ذلك فهم يحترمون بعضهم البعض ويجدون الأعذار لكل فريق، .

وقد نشر محمد سليمان ابن حفيدتي هذه المقالة في إحدى صحف الأرض المحتلة جاء فيها:

دعوني أحدثكم القصة كاملة.

"الأرض الملثمة" هي تسمية ترمز لقصة حدثت عام 1995 – أي قبل قرابة 19 عام، في قرية "لوبية" – قضاء "طبريا"، عندما أجرى الأستاذ عبد الحكيم مفيد مقابلة صحفية مع الشيخ محمود الصمادي الذي عاد إلى بلاده كضيف لأيام معدودة قادما من "مخيم اليرموك". حينها سمحت الزيارة لكل من له أقارب درجة أولى.

أثناء إجراء المقابلة ولطبيعة الظروف الأمنية وقتها اضطر الشيخ محمود الصمادي أن يتلثم عندما رافق وفد الحركة الإسلامية إلى قريته المهجرة "لوبية" لإجراء مقابلة وحوار مع الأستاذ عبد الحكيم، تلثم حتَّى لا يتعرف عليه الجواسيس وأزلام المخابرات ويتم قطع زيارته وإرجاعه إلى "مخيم اليرموك" في سوريا أو محاكمته هنا.

وبعد أعوام عديدة أضحت التسمية "الأرض الملثمة" اسم كتاب الأستاذ عبد الحكيم مفيد، كتاب جمع فيه "حكايات من النكبة وأخرى". وغلاف الكتاب عبارة عن صورة لرجل كبير متلثم، وهي صورة تحاكي صورة الشيخ محمود الصمادي – أبو سميح – ومن خلفه تظهر شجرة الصبار والسرو.

بتقدير الله قبل أشهر قليلة ماضية عرفت من الأستاذ عبد الحكيم بإحدى الدورات الصحفية سبب تسمية الكتاب، وكانت المفاجئة بأن الشخص المقصود هو جدي (جد أمي)، فقمت بالتواصل مع الجد "أبو سميح" وإخباره بما حصل، ففرح كثيرا وحدث من حوله بالقصة. اليوم الجد أبو سميح مقيم في مصر، بعدما اضطر للخروج متأخرا من "مخيم اليرموك"، وهو الذي رفض أن يعيش نكبة

أخرى، بقوله: بأننا لن نعود ونكرر نفس الخطأ (أي ترك الأرض) لكن يبدو بأن وحشية الأحداث هناك كسرت إرادته وإرادة كل فلسطيني.

أخيرًا.. بادرت مؤخرا للحصول على صورة لجدي الشيخ محمود الصمادي - أبو سميح - وهو متلثم كمحاكاة للقصة التي حصلت معه في عام 1995، لنقوم باستبدال صورة الغلاف الحالية للكتاب بصورة صاحب القصة نفسه، وبالفعل بعد طلبي من العائلة الكريمة في الشتات تم تدبير الصورة، سارعت الخالة "هدى" في مصر لتصوير والدها وهو متلثم لتقديم الصورة للأستاذ عبد الحكيم، وقد وصلتني الصورة يوم الجمعة 7/ 2 بعد الطلب بيوم.

واليوم اتصلت بالأستاذ عبد الحكيم وأخبرته بأننا حصلنا على الصورة، بعدما أعلمته سابقا بمحاولتي للحصول عليها، وقد اعتبرها مفاجئة رائعة وأبدى فرحا شديدا وشكرني وشجعني للكتابة عن القصة كلها

محمد سليمان

التغريبة الثانية الخروج من مخيم اليرموك 2013

فشلت كل محاولات المصالحة وازدادت الأحوال سوءا، وأخيرًا قررت الخروج من بيتي الذي بنيته بعرق جبيني من المبنى ذي الطوابق الأربعة الذي ضمني مع أولادي ، من مخيمي الذي عشت فيه أكثر مما عشته في فلسطين حيث سكنته منذ عام 1955 ولولا الجوع القاتل لما خرجت، فالحصار طال كثيرا، والكهرباء مقطوعة وكذلك المياه شحيحة، كان ابني سامر يمدنا كل فترة ببعض المواد التموينية وأما خليل الذي كان يأتينا في الأسبوع مرتين فقد صار يلاقي صعوبة من الحواجز على باب المخيم وحتَّى أنا طلبت منه ألا يأتينا لأن الأمور هنا أصبحت في غاية السوء فقذائف الهاون شديدة والقنص لا يفرق بين مؤيد ومعارض.

وأخيـرًا حانت سـاعة الخـروج، خروج الروح من الجسـد، لم أسـتطع أن أصف شـعوري عنـد الخروج، لقد أحسسـت ألا رجعـة لعاصمة شـتاتنا ولكني قـرأت لابنـي خليل وصـف خروجي على بعـض المدونات يغنيني عما سـأقوله جاء فيها:

المهم اقتنع الشيخ بالخروج وأخبر ابنه بنيته على ذلك واتفقا أن يلتقيا صباح اليوم عند بوابة المخيم التي تسمح لبعض الحالات بالخروج وبما أن الرجل العجوز قد قارب التسعين وزوجته قد قاربت الخامسة والسبعين سمحا لهما بالخروج.

وقف العجوز على باب المخيم يتكئ على عصاه القديمة، وعيناه الغائرتان تتجهان صوب المخيم وكأنه ينظر إليه نظرة مودع، أخذ نفسا عميقا ثم زفر بالحوقلة والاسترجاع، وكأنَّه يودع حبيبا يئس من رجوعه، اقترب منه ابنه مقبلا يديه ومعانقا جبينه العريض قائلا:

- الحمد لله على سلامتكم
- الله يسلمك يا بني، لماذا غلبت نفسك وجئت هنا، أنا بدبر حالي.
- ولو يا أبي إذا ما خدمتك فمن أخدم؟

قبل أن يصلا إلى سيارة ابنه التي ركنها بالقرب من ساحة البطيخة بين جامعي البشير والماجد تنهد الأب قائلا:

- هذه النكبة أصعب من نكبتنا عام 1948

ظل الابن صامتا فلم يشأ أن يأخذ ويعطي بهذا الشأن، فقد لا حظ أن صوت والده متهدجا فأحسَّ أن عينيه تحبس عبرات غالية، فأطرق أرضا فلم يقدر أن يحدق فيهما خجلا وأدبا، فأب عجوز يترك وراءه مبنى مكونا من أربعة طوابق وكل طابق من شقتين يقيم فيها في شقة مستقلة والباقي لذكوره الستة وليس

بحاجة لأحد منهم، فهو يقتات من راتبه التقاعدي ومن كراء المحلات في الطابق الأرضي والتي تعادل ضعفي تقاعده، من هذا المكان زوَّج أبناءه الأربعة عشرة، ستة من الذكور تحلقوا حوله في المبنى، وثمانية من الإناث يضربن بالأرض مع أزواجهن وأولادهن، وترك مكتبة ظل يجمع فيها الكتب مذ وطئت قدماه دمشق، مكتبة هجمت برفوفها وخزنها الغرف الثلاث والصالون وحتَّى على أطراف المطبخ والشرفة.

آه يا حاج إلى أين ستكون وجهة سيرك في هذا الخريف الدامع، وهل ستعود بعد أيام أو أسابيع كما كانوا يخدرونكم بها أيام النكبة الأولى، أم أنك ستسطر نكبة أخرى.

- خذني يا خليل على خان الشيح، عند سميح شقيقك الكبير، كي أهنئه بخروج ولديه وحفيديه من السجن، وبعدها خذني إلى ضاحية قدسيا عند أخيك الصغير سمير فقررت مع خالتك أن نسكن معه ونساهم في أجرة البيت.

ما بين الشقيق الأكبر والأخ الأصغر سنوات جميلة، ثلاثون عاما ونيف، أيام جميلة، ذكريات حانية، كان منها عشر سنوات ونصف للأخ الأكبر في غياهب السجن الصحراوي البغيض.

في الطريق إلى خان الشيح، قناصون وقذائف وصواريخ، وانقطاع طويل للسير، وعشرات الحواجز، لله درك يا سميح ما الذي أجبرك على الجلوس في مزرعة نائية لا تجلس فيها القرود، فهي بين الموالاة والمعارضة وقذائفهما وعلى بعد 20 كم فقط من جنود الاحتلال الصهيوني إنه مثلث الموت الذي لا بد من الفرار منه، ولكن أين سيحط الابن البكر الذي صار مع أولاده وأحفاده عشرين نفرا!! لا بد من الصبر حتَّى يفرجها رب العباد.

وصل سيد العائلة وشيخها إلى مزرعة صديق ابنه البكر الدكتور الجامعي حسان الذي قضى معه عقدا من الزمن ونيف في السجن الصحراوي البغيض، كان الاستقبال حارا وشيقا بالرغم من المأساة حضر الصهر الصفوري عبد السلام زوج الحفيدة ابنة سميح وهذب شعر الشيخ ولحيته، وبعد تناول طعام الغداء المتواضع أصر على الذهاب إلى بيت أصغر أولاده المحامي سمير وكان له ما أراد فنزل عنده عزيزا مكرما ولم يطق الشيخ المكوث إلا أسبوعا هناك؛ فقد قرر الرحيل منها فجأة!!

فبعد أن طرده صاحب المكتب العقاري حيث أخذ استراحة على مصطبته أثناء رجوعه من صلاة الظهر ريثما يستأنف المسير بعد دقائق؛ أقسم ألا يبيتن ليلة في هذه القرية الظالم أهلها، فذهب إلى ضاحية قدسيا وطلب من ابنه خليل أن يجهز له ما يلزم سفره للقاهرة على وجه السرعة.

شخصيات التقيت بها بدمشق

الحاج أمين الحسيني والهيئة العربية العليا لفلسطين.

أنشأت الهيئة عام 1946 باقتراح من جامعة الدول العربية بالقاهرة حيث رأت جامعة الدول العربية أنَّه يجب ان يكون هناك هيئة تمثل كافة الاتجاهات الفلسطينية، كان يرأسها الحاج أمين الحسيني، وأحمد حلمي باشا، وفخري الخالدي وأمين الغوري، وأحمد عبد الباقي، وكانت تمثل كافة الاتجاهات الفلسطينية حيث كانت من عدة أحزاب في فلسطين كحزب الاستقلال، الحزب العربي وهيئة المجلس الاسلامي الأعلى وكانت مهمة الهيئة العربية العليا بالدرجة الأولى، توعية الشعب الفلسطيني عن مخاطر الصهيونية وكان لها فروعا في كل المدن والقرى الفلسطينية وأيضا لها فروع في كثير من العواصم

العربية والأوروبية فأنشأت مكاتب لها في القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد، وسويسرا، و لندن وباريس ونيويورك وبقيت الهيئة تمارس نشاطها، إلى حين قيام تقسيم فلسطين ونشبت اضطرابات بشأن التقسيم وكان للهيئة، لجان عسكرية وأخرى ثقافية أما اللجنة العسكرية، فكان يرأسها المجاهد عبد القادر الحسيني أما اللجنة الثقافية فكان يرأسها أمين الغوري وحسين فخري الخالدي أما مكتبها في لندن فكان يرأسه أحمد الشقيري، وكان لهم مجلة شهرية، اسمها مجلة "فلسطين " كانت مقالاتها راقية تتحدث عن فلسطين ومجاهديها.

وبقيت تصدر حتَّى منتصف سبعينات القرن الماضي.

وقد التقيت بالحاج أمين الحسيني سنة 1965 حيث قدم لدمشق قاصدا منطقة المهاجرين ليتلقى العزاء بوفاة شقيقته خرجنا مجموعة من المخيم كان معي الاستاذ عبد الوهاب مصطفى من ترشيحا وصلنا إلى بيت أخته في المهاجرين وقدمنا واجب العزاء وكنت أول مرة التقي به؛ بالرغم من أنني كنت من أشد مناصريه كان لحضوره هيبة ووقار جلست بجانبه وقلت له:أنت معلم الاجيال ونبراس القضية الفلسطينية حبذا لو تطلعنا على مذكراتك في لبنان وسوريا وألمانيا ودول البلقان.

فقال يا بني: لم يأن الأوان لنشرها.

ولكن بعد لقائي به بسنوات تم نشر بعض من مذكراته على صفحات مجلة فلسطين كما أصدر زهير ماردينى عام 1986 من القاهرة كتابا بعنوان " فلسطين والحاج أمين الحسيني " وهي عبارة عن مذكرات الحاج أمين .

ولما توفي الحاج أمين الحسيني سنة 1973في بيروت ودفن فيها تم حل نشاط الهيئة العربية ثم سحبت الجامعة العربية اعترافها بالهيئة ممثلة للشعب الفلسطيني وأنشأت بدلا منها منظمة التحرير الفلسطينية.

وأما سيرة الحاج أمين الحسيني فهي مليئة بالجهاد ومقارعة الاستعمار ويكفيه فخرا أن زعماء الحركة الصهيونية وآخرهم نتنياهو اعتبروه إرهابيا شديد الخطورة عليهم.

الحاج من مواليد مدينة القدس 1890سافر إلى القاهرة قاصدا الأزهر وتلقى العلوم الدينية هناك ثم عاد إلى فلسطين واشترك بالحرب العالمية الأولى وكان ضابطا بالجيش العثماني وبعدها ذهب إلى دمشق وتعاون مع حكومة فيصل ثم عاد إلى فلسطين وكانت تحت الحكم البريطاني فقاوم الإنكليز وحكم عليه بالنفي وغادر فلسطين إلى الأردن سنة 1920وبعدها جاء لفلسطين حاكم إنكليزي جديد فأصدر عفوا عنه فعاد إلى فلسطين فانتخبه المجلس الإسلامي الأعلى مفتيا لفلسطين وبدأ نشاطه الإسلامي بالإشراف على المساجد، والمحاكم الإسلامية ثم تم تعيينه مفتيا للديار المقدسة وبقى يعارض سياسة الإنكليز حتَّى نشبت الثورة الفلسطينية الكبرى سنة 1935-1936ولما شعر الإنكليز بخطره حاولوا اعتقاله سنة 1938فخرج من بيته سرًّا؛وصل يافا متخفيا وبعدها ركب البحر، ورحل إلى بيروت حاول الفرنسيون تسليمه للإنكليز لكن الشعب اللبناني رفض وقاوم من أجله، ثم حدد له الفرنسيون، إقامة جبرية في حي ذوق ميكال، في بيروت تحت الحراسة المشددة وبقى هناك مدة طويلة استطاع أن يخرج من منفاه، تاركا لبنان، متجها لسوريا، وكان متخفيا وواجه صعوبات كثيرة، إلى أن وصل للبادية السورية ومنها إلى العراق وكان يحكم العراق آنذاك الملك غازي بن فيصل وبقي هناك حتَّى عام 1940 إلى أن وقعت الحرب العراقية الإنكليزية عام 1941وبعدها طارده الإنكليز، وصل لإيران سرا، ومنها غادر لأوروبا وسكن قي ألمانيا أربعة أعوام وخلالها زار البوسنة والهرسك وساهم في إنشاء جيش يدافع عن حقوق المسلمين ضد العصابات الصربية وفي

الوقت نفسه كان يدافع عن القضية الفلسطينية بكل المحافل والمنتديات والمجالس.

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية واستولى الحلفاء على برلين فخرج واعتقله الفرنسيين وحددوا مكان إقامته، في باريس تحت الحراسة واستطاع المواطن السوري معروف الدواليبي الذي كان في باريس أن يؤمن له خروجا بطائرة إلى مصر وصل مصر سنة 1946وذهب إلى قصر عابدين بالقاهرة وأعلن عن شخصيته أيام الملك فاروق ومنحته الحكومة المصرية حق اللجوء وبدأ يدير شؤون الهيئة العربية العليا من مكتبها بالقاهرة ويعطي أوامره إلى كافة المكاتب المنتشرة في عدة أماكن.

وقد نشرت يوما مقالة بعنوان **صفحات مجهولة من تاريخ الحاج أمين** وسأعيد نشرها هنا للأهمية والتي تعطي صورة ناصعة عن اهتمام العرب بعضهم ببعض برغم المآسي التي كانت في كل بلد.

قلت: لم يكن الحاج أمين الحسيني زعيما لفلسطين فقط، بل كان زعيما عربيا وإسلاميا، لم يأل جهدا في مناصرة الشعوب المستضعفة، لا بالكلام فقط، وإنما بالمال والنفس والوقت لقد كان بحق مجاهدا لا يخشى إلا الله، فقد جاهد في فلسطين وخزن الأسلحة في القدس استعدادا للمعركة المرتقبة وبعد أن تم اكتشاف أمره تخفى وهرب إلى لبنان ومنه إلى سورية والعراق للمشاركة في الثورة التي أعلنها رئيس الوزراء العراقي رشيد عالي الكيلاني الثورة ضد بريطانيا، فساهم فيها مساهمة كبيرة وقد أعلن تشرشل جائزة مقدارها 25ألف جنيها ذهبيا لمن يأتي بالمفتي حيا أو ميتا، قاتل في البوسنة والهرسك بعد أن أسس للمسلمين هناك فرقتين عسكريتين لمواجهة الصرب ومجازرهم، وقد أصدر الجنرال تتيتو بعد انتهاء الحرب وسيطرته على يوغسلافيا حكما غيابيا بإعدام المفتي.

لم يجد اللعب السياسية كثيرا لأنَّه كان يعرف في قرارة نفسه تفسير قوله تعالى ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ البقرة120

وقبل هذا كله ساهم في نصرة الثورة السورية الكبرى عام 1925 وكان له فيها موقف عظيم فلنستمع إلى هذا الموقف.

يدلي الأستاذ زهير ماردیني في كتابه " فلسطين والحاج أمين الحسيني" بشهادة تاريخية بحق الحاج أمين تدل على عروبته وإسلاميته يقول في ص 60 :

"في الخامس عشر من تشرين الأول 1924 في الساعة الثالثة صباحا طرق طارق باب سماحته لقد جاء هذا المجهول من جبل الدروز بعد أن قطع على قدميه الطرق الجبلية الوعرة القائمة بين السويداء والقدس ولقد عرفه سماحته رغم تخفيه كان الرجل " رشيد بك طليع" أحد كبار أصدقاء الملك فيصل الأول ملك العراق، كان رائدا في الجيش العثماني وما أن قامت الثورة العربية حتَّى التحق بها.....

عندما لمح الاستغراب الذي أحدثته زيارته المفاجئة على وجه المفتي الأكبر قال له شارحا له مهمته " ستقوم الثورة في سورية خلال أيام ولقد كلفتني القيادة بالاتصال بك كي أحيطك بذلك علما فتقوم نحوها بالواجب، إن سلطان باشا الأطرش والدكتور عبد الرحمن الشهبندر يرجوان منك أن تساهم بدفعة أولى قدرها ألف ليرة ذهبية "

قال له الحاج أمين:

ـ ستأخذها في الصباح!

رد عليه رشيد:

ـ ولكنني لا أستطيع الانتظار حتَّى ذلك الوقت. فالزمن يلح ويجب أن أعود في الحال ولا تنس أني ملاحق من قبل الإنكليز"

عندئذ أيقظ المفتي الأكبر حارسه وأرسله في الحال إلى مدير البنك العثماني ومعه كتاب يطلب فيه منه أن يسلم حامله المبلغ دون تأخير. وسلمها إلى رشيد طليع وأرسل حراسا ثلاثة من خيرة أعوانه فرافقوه حتَّى السويداء.

وما إن سافر رشيد طليع حتَّى قام المفتي الأكبر بجولة بحجة تفتيش مكاتب الإفتاء في فلسطين كي يدعو الشعب إلى المشاركة في الثورة فترك كثير من أصدقائه وظائفهم وعائلاتهم كي يقاتلوا في سورية ولم يدع المفتي حيلة يقدم بها المساعدات المالية والسلاح إلا ولجأ إليها "

هذه الحادثة حصلت عام 1924 وكان المفتي عمره سبعا وعشرين عاما أي في عز الشباب وكان في منصب الإفتاء منذ ثلاث سنوات لذلك ودَّع السياسة وأهلها وحمل راية الجهاد بالرغم من منصبه الكبير وبرغم سنه الصغير لأنه كان يعرف النوايا السيئة التي تحاك ضد فلسطين والعالم الإسلامي، لم يعر الحسابات السياسية أدنى اهتمام ولم يهادن أو يتذرع كما يفعل الكثيرون اليوم من أجل منصب أو جاه أو مال ضحى بكل شيء وعاش في المنافي شريدا طريدا بعيدا عن الأقصى والقدس وفلسطين وملاحقا في أغلب بلدان العالم حتَّى من دول ذوي القربى.

مع الشيخ الألباني 1949

لما وصلت إلى سوريا لاجئا سنة 1949، تعرفت على أبي عبد الرحمن محمد بن الحاج نوح نجاتي الألباني الارنؤوطي، المعروف باسم محمد ناصر الدين الألباني.

قدم لسوريا أيضا مهاجرا مع والده وإخوته، وهو طفل صغير، تقريبا سنة 1917م، من ألبانيا إبان الحرب العالمية الأولى، وكان والده الشيخ نوح لديه أربعة أولاد أذكر منهم: أبا جعفر، وأبا أحمد، اشتغل أحدهم بمهنة التجارة وأحدهم بمهنة النجارة، وأحدهم كان حلاقا، وآخر ساعاتي.

وسكنوا بحي قرب دمشق اسمه الديوانية، وتربوا تربية عصامية، وألحق الشيخ نوح ولده محمدًا بمدرسة الإسعاف الخيري، ونبغ فيها وكان يحثه على علوم الدين، ويوما قال لي الشيخ: يا محمود أول كتاب قرأته بطفولتي كتاب الإحياء للغزالي، واهتممت به كثيرا، ثم درجت إلى تخريج الأحاديث لزين العراقي، وأحببت علم الحديث وأنا طالب بالإعدادي، وكان هذا العلم نادرا، و في أحد الأيام قال لي أبي بعد أن رأى اهتمامي بعلم الحديث: دعك يا محمد من علم الحديث، هو علم البطالين، عليك بعلم الفقه، وبعدها نهاني عن العمل به مطلقا، وعلمني مهنة الساعات إذ وكان لديهم دكان صغير، بحي العمارة بدمشق، قرب جامع الجوزة يعتاشون منه ونبغ في مهنته الجديدة حتَّى صار حرفيا ناجحا في تصليح الساعات.

وبالرغم من اشتغاله في تصليح الساعات وبيعها إلا أنه رجع للاهتمام بعلم الحديث فيبدو أن الوالد لما رأى ابنه قد أتقن مهنة جديدة لم يعد يكترث بما سواها من هوايات محببة .

كنت أجتمع بالشيخ وأتدارس مع تلاميذه نقرأ في المتون والحواشي وكنا يومها سبعة فقط وصرت عنده أثيرًا، وفي سنة 1952خطر على باله تأليف كتاب "صفة صلاة النبي – عليه الصلاة والسلام – من التكبير إلى التسليم، كأنك تراها"، وبعد الانتهاء من طباعته طلب مني توزيع بعض نسخه ، وقال لي أرجوك يا محمود، أن تساهم في نشره، فأخذت منه عشر نسخ ووزعتها على معارفي وجيران بعضها بيعا وبعضها إهداءً.

وتوطدت علاقتنا بعد هذا الموضوع، وصرت أواظب على مجلسه، وأتعرف على العلماء والأدباء وطارت شهرة الشيخ في الآفاق وصار كثير التصانيف نشر بعض مقالاته في مجلة التمدن الإسلامي لأحمد مظهر العظمة وصار يصدر سلاسل الأحاديث منها الصحيح والضعيف والموضوع، وأصبح له مريدون ومتابعون، لاسيما بعدما اتخذ بيتا كبيرا بالقرب من بيتي في مخيم اليرموك في شارع اليرموك مقابل شارع لوبية وكان بعد عصر كل ثلاثاء يعقد على سطح بيته درسا لمحبيه من الرجال والنساء يقصدونه من المخيم ومن دمشق وريفها يجلس الرجال على حصر في المقدمة ثم النساء في المؤخرة دون فاصل أو حاجز وأغلب الرجال من المناطق القريبة من المخيم كانوا يحضرون على الدراجات .

ثم انتقل إلى حي المهاجرين، وانتظمت دروسنا معه بالشهر مرتين، نتدارس في علوم الحديث الصحيحة، وكتب العقيدة، والفقه.وسلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فوائدها وفقهها، وفي صحيح الترمذي وضعيفه، وكان من تلاميذه أبو إسحق الحويني إذ لازمه فترة في عمان، وسليم الهلالي وغيرهما.

زار كثيرا من البلدان العربية والأجنبية للتدريس وإلقاء المحاضرات.

غادر دمشق متجها إلى السعودية ليعمل، محاضرا في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.وكنت كلما قصدت الحج أو العمرة، ألتقيه وأستعيد أيام الدكان والمهاجرين، وكم كان يسر بلقائنا العابر.

وأذكر أنه كان يأتي إلى دكانه في العمارة على الدراجة ثم تحسنت أحواله المادية فاشترى سيارة فيات طحينية اللون، وأذكر مرة في أوائل سبعينات القرن الماضي ذهبت وإياه إلى حوران وتحديدا لقرية إنخل، حضرنا عرسا لأحد تلاميذه، وهو محمد ناصر، والعروس خولة درويش فلسطينية من قرية الشجرة ومن سكان مخيم العائدين في حمص، وكان عرسا إسلاميا كريما.

وكنت ألازمه كثيرا، حتَّى أن أحد تلاميذه، قال لي: يا محمود احفظ عن الشيخ لعلك تخلفه في علمه، لكن عندما توفيت زوجتي اهتممت بالعائلة الجديدة، وكنت أتولى شؤون مسجد الرجولة في حينا بمخيم اليرموك، فانقطعت عن الشيخ لظروفي وعلمت بعدها أنه

استقر به المقام في الأردن وعاش هناك أكثر من عشرين عاما في عمان يحاضر ويؤلف الكتب، وصار حجة علم الحديث في العالم الاسلامي، وله أكثر من 300مؤلف، ما بين متن وتخريج وتأليف وتحقيق وتعليق .

وانتدب لعدة مؤتمرات إسلامية وكان مقدما فيها ورئيسها. ومنح جائزة الملك فيصل العالمية، للدراسات الإسلامية سنة 1419 هجرية الموافق 1999ميلادية.

وموضوعها المجهودات العلمية التي عنيت بالحديث النبوي الشريف، تحقيقا ودراسة وتخريجا وتوفي في 12 تشرين الأول/ اكتوبر سنة 1999م رحمه الله

المفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي في دمشق 1951

في أحد الأيام من عام 1951، جاء شخص يسأل عني، وقال يوجد لدينا ضيف هندي اسمه أبو الحسن يسأل عنك، هو مقيم في فندق الأندلس بوسط العاصمة دمشق، ذهبت للفندق وصعدت بعدما أرشدوني لغرفته قرعت الباب وقلت: السلام عليكم.

وقدمت نفسي: أنا محمود إبراهيم خليل، فرد السلام وقال أهلا بك، معي توصية من الهند لك من الشيخ زين الدين عابد، من جماعة الدعوة.

قال لي إذا زرت دمشق، تعرف على محمود الفلسطيني، له صلة ومعرفة بعلماء دمشق، وبعد أن رحب بي دار بيننا حوار طريف.

فقلت له: يا أستاذ أراك تتكلم العربية بطلاقة وأنت هندي!!

قال: أنا عربي ابن عربي ابن عربي، انحدر من قريش.

أنا أبو الحسن الندوي علي الحسني الندوي بن العلامة عبد الحي بن فخر الدين الذي يتصل نسبه بالحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، ولدت في قرية تكية كلان، قرب لكنهؤ بالهند، وأجيد العربية والفارسية والأردية والتركية والإنكليزية، وقد ألفت كتبا بتلك اللغات.

سالته؟ ما أشهر كتبك قال:كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

سألته أيضا: لما لم تهاجر إلى الباكستان وبقيت في الهند؟

قال يا بني: لنا في الهند تراث وتاريخ كتاج محل والقلعة الحمراء ولن نتركها.

قلت له: حدثني عن المسلمين في الهند.

قال المسلمون في الهند كلهم أهل علم ودين، ويوجد في الهند علماء مسلمون كثر ولا يتكلمون فيما بينهم إلا باللغة العربية، رغم وجود مئات اللغات في الهند، وأنت تعرف الهند بها بلاد متباعدة، ولغات مختلفة، ولكن اللغة العربية هي صلة الوصل بين علماء الهند المسلمين.

وقال لي: لقد أنشأت مجلة باللغة العربية، أسميتها "البعث الاسلامي".

فقلت له: ماذا تريد من دمشق؟

قال: أريد التعرف على علمائها وأتمنى منك أن توصلني بهم.

سررت جدا بطلبه وتذكرت مشاهير العلماء في دمشق فصرت أتردد عليه يوميا ونقصد المساجد والعلماء فعرفته في اليوم التالي بالشيخ أحمد كفتارو، وبالشيخ أحمد الشامي من دوما، وبعد يومين عرفته على المزيد منهم، وفي اليوم الثالث على آخرين وبعد أيام عرف علماء دمشق مكانة الشيخ فهرعوا إلى الفندق، ونقلوه لبيت الشيخ عبد الوهاب الصلاحي في منطقة الحلبوني، وكان الشيخ

الصلاحي من خيرة علماء دمشق وكان إمام القصر الجمهوري، كل يوم يذهب إلى منطقة المهاجرين ليؤم بالمصلين بالقصر الجمهوري.

وكان هذا البيت مرجعا للعلماء والزائرين، واكتظ أكثر بوجود الندوي بينهم، وبعد أن اطمأننت على الشيخ قلت زياراتي له، وكان يسأل عني، وعندما أحضر يقول:لماذا لا تواظب معنا، فقلت له أنا لست من العلماء. فقال لي أنا اثق بك وبعلمك يا محمود، ولا تنس أن الشيخ زين الدين عابد هو من زكاك عندي.

ويبدو أن الشيخ سُرَّ جدا من دمشق وأهلها وعلمائها فطاب له المقام لمدة لا بأس بها.

وفي إحدى المرات قال: أريد أن أزور الأردن وبيت المقدس، وأريد الحصول على فيزا، فقلت له: لا يوجد لدينا في سوريا سفارة أردنية، فقال كيف السبيل.فاقترح الشيخ بهجة البيطار، أن أسافر لبيروت وأحصل على فيزا للشيخ الندوي.

أعطاني جواز سفره ورسوم التأشيرة وأجرة الطريق، وانطلقت نحو لبنان بالسيارة صباحا، وصلت عصرا وبت ليلة في بعلبك، وفي الصباح اتجهت لبيروت، وسألت عن السفارة الأردنية وكانت غرب بيروت، فلما دخلت السفارة وقدمت جواز سفر الشيخ الندوي، قالوا: هذا الشيخ معروف، وماذا يريد من الأردن، قلت يريد زيارة عمان وبيت المقدس.

فقالوا: ارجع الساعة الواحدة بعد الظهر لاستلام التأشيرة، فتجولت في شوارع بيروت وعدت على الموعد المحدد، واستلمت الفيزا، ورجعت لدمشق ووصلتها ليلا، وطرقت منزل الشيخ عبد الوهاب وسلمت جواز السفر للشيخ الندوي، وفي الصباح سافر إلى الأردن، ورحبوا به على الحدود، وقالوا له: لو أتيت من دون فيزا لأدخلناك.

ورحب به العلماء هناك حتَّى أنه زار القصر الملكي، والتقى بالملك عبد الله ، ورحب به وسهل له طريق زيارة القدس، وذهب للقدس وزار المسجد الأقصى، بعد أن أمضى عدة أيام هناك عاد لدمشق، وأمضى بها سنة كاملة أستاذا محاضرا بكلية الشريعة بجامعة دمشق، وكان كثيرا ما يتكلم عن القضية الفلسطينية في محاضراته المكتظة بالعلماء والطلاب، كل هذا في عهد الرئيس هاشم الأتاسي رحمه الله.

وكنت ألتقي به يوميا في المسجد إلى أن رجع الهند، ثم التقيته مرة أخرى زائرا لدمشق في أوائل الستينات، ثم ذهب إلى العراق ولم يتمكن من مقابلة الرئيس العراقي أحمد حسن البكر، ورجع بعد رحلته الطويلة هذه إلى الهند، وألف كتابا عن جولته هذه أسماه " مذكرات سائح في الشرق العربي" ذكرني فيه في أكثر من موضع، وبعد فترة أسس جمعية خاصة باللغة العربية في الهند، وأسماها رابطة الادب الاسلامي العالمية، ينتسب إليها جمع من الأدباء العلماء، حتَّى أن ابني خليلا ينتسب إليها، وأنشأ المجمع الاسلامي - أكاديمية البحوث الإسلامية - كما ساهم وشارك في إصدار المزيد من المجالات الأدبية العربية في الهند وغيرها.

كما أخبرني أنه تلقى مبادئ التعليم باللغة العربية على يد أمه إذ كانت شريفة النسب، عابدة وحافظة للقرآن، وكاتبة وشاعرة، وعالمة باللغة العربية.

له مؤلفات عدة أهمها: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، روائع إقبال، سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم للأطفال، مختارات من أدب العرب قسم النثر، تأملات في القرآن الكريم، التفسير السياسي للإسلام وغيرها من عشرات العناوين إذ كنت حريصا على اقتناء كل ما يؤلفه الشيخ.

نال جائزة الملك فيصل العالمية، وهي مبلغ مالي ضخم، فقال أنا لست بحاجة للمال، فتبرع بها للمعهد الاسلامي الندوي في بلدته لكنهؤ في الهند.

وبقي يعيش متجولا في العالم، وزار ماليزيا وروسيا وأمريكا وعشرات الدول إذ كان يلقي المحاضرات والندوات بشتى اللغات.ويجتهد ويحاضر من أجل نشر الدعوة حتَّى غدا أشهر عالم إسلامي يرحمه الله.

وتوفي يوم الجمعة وكان يقرأ بسورة الكهف في 23رمضان عام 1420للهجرة الموافق لـ 31ديسمبر 1999م.

الأمير شكيب أرسلان بين مناسبتين 1946...1986

كنت من أشد المعجبين بالأمير شكيب أرسلان وانتقل إعجابي به حتى بعد النكبة وبقيت حريصا على اقتناء كتبه وما كتب حوله، وذات يوم طالعت في جريدة الثورة السورية عام 1986 خبرا مفاده أن المركز الثقافي في مدينة السويداء سيقيم حفلا بمناسبة مرور أربعين عاما على وفاة شكيب أرسلان.

عقدت العزم أن أذهب هناك ففي صباح ذلك اليوم كنت في الصف الأول بالمركز الثقافي العربي بالسويداء وقد لفتُّ انتباه أغلب الحضور إذ أنهم يعرفون بعضهم وعددهم قليل وكذا لفت انتباههم لباسي الفلسطيني وغطرتي أو شماخي فتقدم رئيس المركز فندي أبو فخر مسلما علي وبعد حديث قصير أصر على أن ألقي كلمة ارتجالية بهذه المناسبة.

وقفت أمام الجمهور مخاطبا:

من دواعي سروري أن أحضر هنا في السويداء ذكرى مرور أربعين سنة على وفاة أمير البيان والبديع شكيب أرسلان وأحب أن أخبركم بأنني حضرت ذكرى مرور أربعين يوما على وفاته.

ولم أنس يوماً ثقافياً كبيراً يومها يمّمت شطر مدينة يافا في ذكرى أربعين الأمير شكيب أرسلان، وذلك عام 1946. كان عمري حينها 18 عاما، وأذكر

الكلمات التي ألقيت في هذه المناسبة، منها كلمات الأساتذة العلماء من فلسطين ومصر وسورية محمد علي علوبة، وخليل السكاكيني، ونجيب الأرمنازي، وعبد المنعم الرفاعي، ومن المغرب عبد الله كنون.

ذهل كل الحضور وأنصتوا وكأن على رؤوسهم الطير وتابعت حديثي مبينا دور شكيب أرسلان في عدد من القضايا ومما قلته:

ومن الرجال الذين كان لهم دور في الوحدة بين العرب والمسلمين الأمير شكيب أرسلان فقد رزقه الله علما وجاها وهمة عالية استغلها في بيان مصائب أمته واستخدم قلمه في مقارعة الاستعمار والاحتلال ولم يكتف بهذا بل نجده يطير في الآفاق من أجل أن يصلح بين زعيم وزعيم أو أمير وأمير أو بين قبيلة وقبيلة أو بين الأسرة الواحدة

وله أياد بيضاء في محو كثير من أسباب سوء التفاهم الذي ينشأ أحياناً بين ملوك العرب أو بين أمرائهم أو سائر رجالاتهم وغالباً ما تكللت مساعيه بالنجاح بفضل ما كان يتمتع به عندهم من نفوذ وإكرام. ففي سنة 1934 اختير في الوفد الذي شكلته لجنة المؤتمر الإسلامي في القدس لحل الخلاف بين الملك عبد العزيز بن سعود والإمام يحيى، فكان له الفضل في إزالة البغض والشحناء. ونظرا لما قام به من جهود مباركة للتقارب بين العرب والمسلمين منحه الملك عبد العزيز جنسية بلاده وقد كتب اسمه في جواز سفره" عطوفة الأمير شكيب أرسلان".

وصرت أعدد مناقب الفقيد، والقوم كلهم آذان صاغية فلما انتهيت من كلمتي أقبل الجميع علي مرحبين ومهنئين ومقبلين رأسي وكأنهم عثروا على صديق شكيب أرسلان، لم أدر كيف تملصت هذا اليوم من كرم أهلنا في السويداء فالجميع يريد أن يحظى بي ضيفا في بيته ومضافته فاعتذرت من الجميع ورجعت لدمشق بحفاوة لا توصف، وبعدها لم تنقطع اتصالاتي مع مثقفيها إلى أن حلت الأزمة السورية بسقمها المخيف.

القاهرة 2013/5/23

وأخيرًا حطت بي الرحال في القاهرة!!

القاهرة، نعم القاهرة فأنا أعشقها منذ طفولتي وأعشق أزهرها وعلماءها ومساجدها، صحيح أنني فشلت في الوصول إليها أيام طيش الشباب عام 1942 عن طريق النقب والعوجا قبل بلوغي السادسة عشرة إلا أنني بقيت على اتصال من خلال الأدب والصحافة ومجلات الرسالة والفتح وكتب المنفلوطي والرافعي وسابق والبنا قبل النكبة وبعدها.

حضر ابني خليل باكرا إلى ضاحية قدسيا ومعه وثيقتا السفر وبطاقتي طائرة وأقلنا بسيارته إلى مطار دمشق الدولي حيث مررنا على أكثر من خمسة حواجز للتفتيش وخشيت أن تفوتنا الطائرة، ولكن الله سلم ووصلنا مع النداء قبل الأخير.

مطار دمشق بائس حزين، لم يعد كما كان من سنوات خلت، وحتَّى مرتادو المطار من مسافرين ومستقبلين لا ترى عليهم علامات العز أو الفرح، أشكالهم متشابهة، أكثرهم من القرويين بلباسهم التقليدي وبعضهم من أهل المدينة بلباسهم المتواضع وأحذيتهم المهترئة.

وأخيرًا وبعد تفتيش وتمحيص وتدقيق وأختام صعدنا الطائرة المتجهة للقاهرة وهناك كان في استقبالنا ابني ـ أستاذ اللغة الإنكليزية في الأونروا ـ سهيل و ابنتي هدى وزوجها المصري وأبناؤها الصغار.

مصر اليوم تعج بالتناقضات رئيس منتخب منذ أقل من عشرة أشهر وحشود عديدة تنادي بإسقاط الرئيس، وقرارات جريئة لهذا الرئيس ربما كان أهمها بالنسبة لنا معشر الفلسطينيين السماح للفلسطيني حامل الوثيقة من دخول مصر بل المكوث فيها إن أراد.

كانت القاهرة يومها تعج بالسوريين ومن في حكمهم كان ابني سهيل وزوجته وأولاده في مدينة السادس من أكتوبر وعشرات من أقاربي موزعين ما بين أكتوبر ومدينة نصر كانوا لا يقصرون في زيارتي بين الفينة والأخرى حتَّى تلاشى معظمهم هربا إلى أوربا ولم يبق منهم من أرحامي إلا ابنة أخي زبيدة مدرسة الرياضيات في الأونروا من قبل.

تسكن ابنتي هدى في حي شعبي بمنطقة بولاق الدكرور ومن محاسن الحظ أن في البناية التي تسكنها شقة شاغرة وصاحب المبنى كان رافضا تأجيرها مهما دفع له من أجرة، ولكنه لما عرفني وقابلني مرتين أو ثلاثة في طريقي للمسجد تنازل عن إصراره وأجرني وقال: "والله مشان العم محمود وافقت على تأجيره بس علشان يبقى بجانب بنته" وكان مقدار الإيجار 500 جنيها مصريا لا غير.

.أناس طيبون يقدرون الغريب ويحترمونه أشد الاحترام، ومع مرور الأيام وخلال نزولي للمسجد كل الأوقات أصبحت علاقتي مع الجيران وأهل حي شارع عبد القادر البغدادي في طوابق الديابة على أحسن ما يرام رجالها ونسائها وشبابها وأطفالها، وطلاب العلم منها ومن الأحياء المجاورة، وأطلقوا علي لقب الشيخ الشامي، كانوا يتفننون في إكرامي، يحملون الأغراض التي أشتريها ويوصلونها للبيت، يقدمون لي الكراسي كي أرتاح وأنا ذاهب للمسجد أو السوق، يزورونني ويدعونني لكل مناسباتهم، شعرت أنني مازلت في مخيم اليرموك بين أهلي وجيراني، وأذكر مرة أنني تعرضت لكسر حوضي جراء سقوطي من الدرج أثناء ذهابي لصلاة الفجر ولزمت المشفى أسابيع عديدة ولم يخلُ يوم من الزائرين وحتَّى بعد خروجي للمنزل، وأذكر مرة أن أكثر من عشرة أطفال من الحي جمعوا ثمن زجاجة عصير قدموها لي بمناسبة خروجي من المشفى، ما هذه البراءة التي رسمت على وجوههم، وما هذا التقدير لشيخ طاعن في السن مثلي!!.

، وأذكر أيضا "أم صلاح" جارة قبطية لابنتي هدى عادتني وهي تجر قدميها المتعبتين وهي تعاتبني وتقول بلهجتها الصعيدية وتبكي: "يا بوي الرب موجود بكل مكان، سامعنا وشايفنا وبيقبل منا صلاتنا في كل مكان أنت راجل كبارة صل في بيتك يا عم محمود".

وأول عهدي بمصر منذ عام 2001، وزرتها أيضا في 2003 وفي 2006 وفي 2009 وأثناء زياراتي السابقة كنت قد أقمت علاقات طيبة مع جيران ابنتي ومع أشخاص مازلت أحتفظ بصداقتهم الى هذه اللحظة من حي بولاق الدكرور منهم الصحفي ومنهم العامل البسيط ومنهم مؤذن المسجد وخطيبه، وقد أكرموني وعاملوني وكأنني واحد منهم، وفي كل مرة كنت أتوق شوقا لزيارة الأزهر والصلاة فيه وواظبت على حضور خطب الجمعة في مدة تواجدي بالقاهرة، واستمتعت بزيارة الآثار الجميلة كالأهرامات وقصر الأمير محمد علي ورأيت كل مقتنيات الأمير من ألبسته العسكرية وسيوفه وأسلحته وطيوره المحنطة، وصالوناته التي كانت مقرا للاجتماعات لقد كان قصرا ضخما فخما.

وزرت صرحين عظيمين بمصر هما مسجد السلطان المملوك حسن، ومسجد الرفاعي وهما متقابلان في منطقة واحدة قرب منطقة القلعة، وهما آيتان من آيات الجمال في العلو والارتفاع وكان مسجد السلطان حسن مركزا للدراسات والعلوم الدينية، أما مسجد الرفاعي فقد كان بالبداية مقرا لأصحاب الطريقة الرفاعية وبعدها قامت إحدى بنات الخديوي إسماعيل بالإشراف على تجديده وهو معجزة من معجزات العمارة الإسلامية، وفي الجزء الغربي منه المقبرة الخديوية والتي دفن فيها إسماعيل وفؤاد وفاروق، وأيضا دفن فيها في عهد السادات شاه إيران محمد رضا بهلوي عندما لجأ لمصر إذ كانت تربطه بمصر علاقة مصاهرة فطليقته الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق .

كما أنني زرت مسجد الإمام الشافعي في منطقة سميت باسمه منطقة الشافعي، وكنت أعرف كل هذه المناطق قبل أن أزورها من خلال كتب التاريخ التي كنت أقرؤها، توجهت لضريح الإمام الشافعي وكأن المهابة والنور تطلع من المقام، وقرأت الفاتحة عليه وتجولت في منطقة الشافعي ورأيت كثيرا من الأضرحة المشهورة والقديمة ثم رجعت لجبل المقطم الذي به كثيرا من المطابع والأماكن الحيوية.

ذهبت مرة إلى منطقة شبين الكوم التابعة لمحافظة المنوفية برفقة ابنتي وكم تمتعت بجمال الطريق وتعرفت على ناس طيبين هناك وهي منطقة زراعية غنية بمحصولاتها الوفيرة.

دعينا مرة إلى قرية من أعمال الجيزة اسمها أم خنان وهي قرية جميلة جدا فيها النخيل الباسق وكل أنواع الخضراوات وقد ذبحوا لنا عجلا وكانت الدعوة لي ولكل اللاجئين المقيمين بمنطقة ستة أكتوبر بالقاهرة.

لم أنس قلعة القاهرة التي بناها صلاح الدين الأيوبي التي تقوم على مقام مرتفع من القاهرة وفيها مسجد شهير بناه محمد علي باشا وعندما توفي دفن فيها، وهي من أشهر قلاع العالم كله فقد زرتها مرارا أكحل عيني بمنجزات البطل العظيم.

كما أنني زرت الإسكندرية وزرت فيها جميع معالمها كقلعة قاتباي ومكتبة الإسكندرية وقصر المنتزه واستمتعت بشاطئها الجميل وأناسها الطيبين وهوائها العليل.

لم أهنأ كثيرا بالاستقرار في رحلتي الأخيرة هذه فبعد وصولي بشهرين انقسم الناس إلى فريقين فريق في رابعة وفريق في التحرير وامتلأت البلاد بالمظاهرات والاعتصامات والمناكفات، والتحليلات وإن شئت قل فتنة كادت

تطيح بالبلاد، ولكنَّ أرض الكنانة بحماية الرحمن بأهلها الطيبين، عشت على مبدأ "ياغريب كون أديب " فلم أخض بالمناقشات السياسية بين الناس إلا فيما ندر، كما حضر ابني سهيل مع زوجته وأولاده لوداعنا في رحلة بحرية من الإسكندرية إلى حيث التيه والمجهول.

حاولت ابنتي إصدار إقامة لنا منذ أن وطئنا أرض مصر عدة مرات لكن محاولاتها كلها باءت بالفشل، ولا فائدة لمن في مثلي بالإقامة فأخبرتهم أنني لست حريصا عليها فلا أسفار تنتظرني ولا صفقات مؤجلة، أعد الأيام التي بقيت في حياتي كي ألقى الله كما يحب ويرضى.

وقبل أن أودع هذه الحياة ورغم ما في نفسي من حسرة كبيرة إلا أنني راض بقضاء الله ومحتسب عنده وحده ما أصابنا من ابتلاءات وكلي ثقتي بالله وعلى يقين تام واضح كالشمس في رابعة النهار أننا سنرجع يوما ما إلى بلادنا وقرانا ومدننا وللقدس والأقصى وحيفا ويافا وعكا وإلى مسقط رأسي لوبية وهو قريب وقريب وما ذلك على الله ببعيد فدولة الطغيان ساعة ودولة الحق لقيام الساعة كما قال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. آل عمران 139 ـ 140.

انتهى

القاهرة بولاق الدكرور 10 / 10/ 2018